د. إسماعيل حامد

# رائحة الشوام

ABU ABDO ALBAGL

قصص

إذا أعجبك الكتاب, فرجاءً حاول أن تشتري النسخة الورقية.
تذكر أن الكتاب العرب معسّرون والكل يستوطي حيطهم
دعنا لهم يضمن استمرار عطائهم.
(أبو عبدو)

5579

مجموعة قصصية

# رائحـــــة الشوام

د. إسماعيل حامد

الكتـــاب رائحـــة الشـــوام

المـــؤلـــف د. إسماعيل حـــامد

رقـم الإيـداع 16757 / 2013

الترقيم الدولي 9 - 21 - 6447 - 977 - 978

**جميع الحقوق محفوظة للناشر**

وغير مسموح بإعادة نشر أو إنتاج الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه على أجهزة استرجاع أو استرداد أو تسجيله علي أي نحو بدون أخذ موافقة كتابية مسبقة من الناشر.

مدير قسم النشر: فتحى المزين

Fathy66666666@yahoo.com

01282288056

التجهيز الفنى: حسين الحماقـــى

01006674335

الغـــــلاف: كريم آدم

المراجعة اللغوية: إيمان الدواخلي

الإشراف العام: عيد ابراهيم

العجوزة: 60 عمارات الإعلام خلف السيرك القومى، الدور الرابع، شقة 407

الهاتف: 0233044831

البريد الإليكترونى: ibda3666@gmail.com

مجموعة قصصية

# رائحة الشوام

د. إسماعيل حامد

# إهـــداء

- إلى نور البصيرة، الذي طل من عينيها، فأزال غشاوة البصر..
- إلى الأماكن التي حلت بها، فغمرتها بطيب مسكها..
- إلى من سعد حظه، فكانت ابتسامتها الأخيرة له، دون سواه..
- إلى تلك الملائكة، التي حملت روحها برفق وحنو إلى السماء..

إلى تلك التي رحلت، في صمت ورهبة..

# تقديم

## عن هذا الكتاب

إنها ليست بالمهمة العادية أن تصنع أدباً عن طريق الأدب يقوم الكاتبُ باختصار كل طرق التواصل التي عرفتها المخلوقاتُ وترجمتها إلى حروف وكلمات، فيجمع لغة الجسدِ ولغة العقل ولغة القلب وكذا لغة الكون من حوله، الأفكار والأحاسيس، كل ذلك يحوله ببساطة وخفة إلى كلمات متقنة الإخراج، يصطادُ الأفضل ويلتقط الأهم منها بعين إحساسه فيرسمها لوحة بديعة من حروف نابضة.

والموهبةُ الحقيقيةُ تظهر أكثر في قدرة الأديب على تهذيب التركيبة المعقدة التي تعتبر جزءاً من طبيعة التكوين الإنسانيّ، وترويض الصراعات الناشبة بين الأجناس المختلفة في بيئة عمله الإبداعي. وفي هذه المجموعة القصصية أتقن فيها القاص إسماعيل حامد دور الإنسان في عرض ما التقطته كاميرته الإبداعية، وترجمته إلى مجموعة قصصية بديعة تجعلك تتفاعل معها ولا تستطيع كبح انفعالاتك حال قراءتها فتجد نفسك تنفعل وتتأثر بالأبطال وأدوارهم فتبتسم معهم وتحزن وتتوتر وتترقب... الخ تلك العواطف.

تظهر جليةً جداً إنسانية الكاتب بين سطوره، حين يسرد أي قصة بشكل إنسانيّ بسيط وشفاف، وروح أدبية راقية وحساسة، تتجلى في اهتمامه

بالتفاصيل الصغيرة التي قد لا تجذب سوى المبدع صاحب المشاعر المرهفة، والعين التي تنفذ إلى الأشياء بسهولة ويسر بالغين. يسهم في تألق الكاتب واتصال أنفاسه في السرد القصصي بشكل ملفت ومتميز، ما لا يمكن إغفاله بحال من الأحوال من ظروف وتجارب وخبرات يعيشها الكاتب. فنصوص الكتاب يكاد بعضها ينطق بتجربته الناضجة.

أتت تلك المجموعة التي تحمل رائحة الألم الذي تعاني فيه بلده (أم الدنيا) من اضطرابات سياسية لحقت الربيع العربي في كل البلدان العربية المحيطة، على الرغم من ذلك جاءت مجموعته منوعة، وإنني أكيدة من أن اهتمام الكاتب بتنوع الموضوعات والأماكن والتواقيت والعلاقات التي يكتب عنها وتوزيع حصص الجمال بين قرائه، كلٌ كما يحب وفيما يحب سيوسع دائرة جمهوره بين القراء العرب خاصة.

**سماح ضيف الله المزين**

**فلسطين – غزة / في: ١٣ سبتمبر ٢٠١٣**

# أتوسل إليك

«ماتقلقش إن شاء الله خير، هتعمل العملية، وتقوم بالسلامة»

كلمات باردة، مبتذلة، معتادة في مثل هذه المواقف.. أتعجب كثيرا من أمر الأفلام السينمائية، كيف نقول إن هذا الممثل يبالغ، أو ذاك المخرج يضع درامات وهمية مصطنعة، ونكتشف لاحقا أن تلك ما هى إلا الحقيقة ذاتها.

شريط حياتى مر أمامى بتسلسل عجيب ومستفز.. لن يكون لى نصيب أن أعيش. أعلم أن أبى وجدى ماتا بنفس النوع الخطير من السرطان، وراثة عائلية، ليس لبشر منا دخل في أسباب حدوثها.

مواقف كثيرة جمعتنى مع أصدقاء وأقارب ومحيطين، أتذكر معظمها فأبتسم بسخرية، من القدر ومن نفسي أولا، حتى تأتى ذكرياتى مع شيرين، فأبكى بحرقة، وأولول أيضا.

كيف أقول لها إننى من الممكن أن أموت بعد عدة أيام إن أراد الله!.. كيف لى أن أقول لها، كفى، أكملى حياتك بمفردك!.. فلم أعد صالحا كى أكون زوجك المستقبلى.

تذكرتين سينما، مازالا في جيبى لحفلة (٦).. هل سأتركها تذهب وحدها، أم سأذهب معها؟!..

لا بأس.. سأذهب معها، حتى أستمتع بلحظات، ربما تكون الأخيرة لى،

لتبدأ رحلة آخرتى.. سنشاهد الفيلم في تلك القاعة المظلمة، وذلك السكون الذي لا يقطعه إلا ضحك هيستيري من الجمهور، إذا كان فيلما كوميديا، أو ذلك النحيب الانثوى المبالغ فيه، إن كان فيلما رومانسيا حالما. سنأخذ الفيشار واللب والسودانى كما هى عادتنا.. سنقضى وقتا سعيدا.. سأترك لها تلك الورقة التي كتبتها بدموعى في حقيبة يدها، ستراها في منزلها لاحقا..

القدر يسخر حتى النهاية، الفيلم المعروض في السينما هو «حبيبى دائما»!!

عيون باكية، لا تعرف نجواها إلا قلوب حانية..

حبيبتى، لا تبكى.. كفاك دمعا، ألما.. لو كنت أعلم أن فراقى سيفيض أنهارا من الدمع البرئ، ما فارقت؛ لكننى في قمة سعادتى لأنك تبكين من أجلى. حبيبتى، لو علمت لماذا اخترت هذا الاختيار القاسى لعذرتِنى، أعلم أن عذرى بالنسبة لك لن يقبل أبدا.

أتذكرين وردتى التي أهديتك إياها، هل تهتمين بها؟!.. أتسقينها من حنان قلبك، وشهد رقتك؟!

أشهد الله والجميع أننى ما عشقت سواك، وهل سواك يعشق؟!!

كفانى حقا ما فعلتِهِ من أجلى على مدى الخمس أعوام الماضية، حين أشبعتنى نظرة عينيك، وروت ظمئى لمسة يديك..

أيتها الحانية الغالية، أتذكرك وأذكرك في علِّيِّين..

فلا تقلقى، فحبك هو الروح والجسد والقلب والعقل معا..

# دمعة حائرة

قتلتنى..

كان سكينا تلها، لا يفض نفسا عشقت فلم يشفع عشقها.

لم أكن أعلم أن كوب عصير المانجو الذي شربناه معا على الكورنيش هو آخر ما بيننا. مرت ثلاثة أشهر كاملة على آخر مرة رأيتها فيها.

وها أنا ذا أتجرع الآم الفراق وحدى.

ربما قتلت مسموما ببودرة تراب الماس **Diamond Dust**

هل قرأ أحدكم تراب الماس؟،، "عندما يكون القتل أثرا جانبيا"!!.

تلك التي تخلف قرحا وأوراما في المرئ تودى بالحياة..

ربما كانت أسطورة، وربما حقيقة..

لا أشعر بقرح في المرئ أو أوراما، لكنى أشعر بمرارة الفراق، التي تفوق تلك الأعراض بكثير.

عندما قابلتها منذ ما يقرب من ثلاثة أشهر، كنت في قمة السعادة والانطلاق، متفائلا يخطو نحو الحياة، منشرح صدره، يقفز على قدم واحدة من فرط الفرح. مر على حبنا عامين كاملين، كانا من أسعد أيام العمر، التي خلدت في ذاكرة لم تعرف الكثير من ألوان السعادة. كنا على موعد كل خميس، ولم أدر أن هذا هو آخر خميس بيننا.

جلست أمامى ذاك اليوم، على أحدى الترابيزات في ذلك الكافيه المطل على النيل.. تأملت وجهها الذي عهدت فيه التلألؤ والبشاشة، لم يكن كما هو. ثمة تجاعيد وهالات بنية تفترش أسفل جفونها، وكآبة ظاهرة على خدودها البضة!.. أزعجتنى كذلك تلك التكشيرة التي اعتلت شفتين لم تعرفا من قبل معنى التجهم والوجوم.

سألتها في حنو فائض:

- مالك ياحبيبتى، فيه إيه؟!

فتنهدت بصعوبة، وأطرقت برأسها إلى الأرض، فلما ألححت عليها، قالت في ضيق دون أن تنظر الى عينى:

- مفيش يارامى، مافيش.

فقلت معاتبا:

- حبيبتى، كده تخبى عليّ، هو في بينا أسرار؟!

فقالت بصوت خفيض:

- رامى، أنا جايلى عريس النهارده، ولازم تشوف لك حل.

فوقعت علىّ الجملة كالصاعقة، فبردت أطرافى، وارتجفت تجاعيد وجهى، وقلت في ضيق:

- عريس؟!.. هو أحنا مش اتفقنا ولا أيه؟

فقالت في نرفزة:

- طب أنا أعمل إيه يعنى؟ أهو ده اللى حصل.

فقلت محاولا تغيير دفة الحديث:

- تشربى إيه؟

– أنا باقولك جايلى عريس تقول لى تشربى إيه؟!!

لم أنتبه إلى كلماتها، وبإشارة من يدىَّ المرتعشتان جاء الجرسون، تعلوه ابتسامة مصطنعة قد تعود عليها، فقلت في لا مبالاة:

– (٢) مانجا لو سمحت.

تابعت انحناءه المبتذل، حتى انصرف ، فنظرت لها دون أن أتكلم. ساد صمت قطعته كلماتها الباردة:

– ما قلتليش ناوى تعمل إيه مع بابا وماما؟

فقلت محاولا تقصى ما ترمى اليه:

– انتِ إيه رأيك؟

فقالت في دهشة رسمتها عيناها المتسعة:

– رأى إيه؟!!.. انت بتسألنى يا رامى؟!

فقلت محاولا استرضائها:

– "هنا".. انتِ عارفة ومتأكدة إنى بحبك قوى، وما اقدرش أعيش من غيرك لحظة، بس...

فقاطعتنى قائلة:

– بس إيه؟!!.. باقول لك جايلى عريس النهارده، أنت عارف أنا باقول ايه؟!

فقلت في ضيق:

– أيوه عارف، واللى أنا عارفه كمان إنك لازم ترفضى أي حد يتقدم لك لأنك بتحبينى ولا إيه رأيك؟!!

– كمان بتسألنى عن رأيى، انت إيه؟!!

- قصدك إيه؟

فقالت في عصبية بعدما استجمعت كل قواها:

- قصدى انى مستحملة كل حاجة معاك بقالى سنتين، وده بس علشان بحبك، ويوم ما حبيتك وعدتك انى ما اكونش لأى حد غيرك، حصل ولا لأ؟!!

فقلت في فراغ صبر:

- عارف.. عارف.

فسكتت وأشاحت بوجهها عنى، لتتابع حركة بطيئة لإحدى المراكب النيلية السابحة على وجه المياه شبة الراكدة، فهممت أن أمسك يدها حتى تذوب عصبيتها، فسحبتها بسرعة، وقالت كمن يريد أن يخلص ضميره من ذنب يؤرقه:

- رامى ، صدقنى لو ما اتحركتش وعملت خطوة إيجابية ، ما تلومش إلا نفسك.

- قصدك ايه؟!!

فقالت ، وقد أمسكت بحقيبة يدها تنوى مغادرة المكان:

- قصدى انت عارفه كويس، خلص الكلام.

ثم قامت من أمامى في رشاقة وسرعة، ولت ظهرها نحوى، وانصرفت بخطى مطمئنة متحررة! منعنى شئ ما من أن أوقفها أو أسترضيها.. اكتفيت بمتابعتها حتى اختفى ظلها وغابت عن عينى. شردت حينا بعيدا عن الضجيج من حولى، واكتفيت بنظرات تائهة عابسة لمياه النيل، التي لم تكتب كلمة واحدة، وإن كنت قد استنطقت كلاما كثيرا من صفائها.

لم أدر كم مر من الوقت وأنا على تلك الحال.. تجرعت شربة من عصير

المانجو الذي وضع أمامى دون أن أشعر، فنزلت قطراته في جوف محرقة ليست مرطبة، مشعلة ليست ملطفة، وكأن الجرسون قد استبدله بماء النار، حتى يزيد من المشهد كآبة.

شيء ما بداخلى يقول إن كل هذا حتما سيمر.. ستمر الأزمة، هى تحبنى -أعلم ذلك- يقينا، وأعلم أن من حقها أن تثور في وجهى. كان عندى يقين أن هذا الذي حدث سيمر.. فقط لأن كثيرًا من العُرسان تقدموا لها ولم يسمعوا إلا ردا واحدا.

مرت ثلاثة أشهر كاملة.. في بادئ الأمر لم ترد على اتصالاتى الكثيرة، ثم أحرقتنى المقولة الشهيرة: "الهاتف الذي طلبته ربما يكون مغلقا".. لقد استبدلت الخط، ومن ثم استبدلت القلب والحب، يبدو أنها كانت تعنى تماما ما تقول في آخر مرة.

أجلس وحيدا الآن في نفس المكان بعد ثلاثة أشهر، أتذكر شيئين ربما لا صلة بينهما.

أولهما، هو رواية تراب الماس، وثانيهما، أمر كنت قد قرأته عن الفنان التشكيلى الهولندى الرائع "فنسنت فان جوخ"، عندما قرأت عنه أنه قطع أذنه اليمنى وقدمها على طبق لحبيبته كى ترضى عنه، فتعالت ضحكاتها، ووصفته بالجنون، ولم تبال بما فعل تعبيرا عن حبه الصادق لها، فخرج عنى هذا السؤال مغلفا بدمعة أبية كانت لا ريب حائرة:

ترى، ماذا تريد الحبيبة من حبيبها؟!! ، أتتنى الإجابة الشافية في كلمات طاغور.

قال "طاغور".. شاعر الحب الكبير:

لما تسمعين الضحكات، وستبكين.
ستذكرين دموعى.. كما بكيت أنا من قبل.
ولما ترين الغدر ، وسيغدر بك الزمان.
ستذكرين وفائى.. كما غدرت بى.
ولما تشعرين بقسوة البشر ، وسيقسو قلبك على البشر.
ستذكرين شفقتى.. كما قسوتِ علىّ.
تلك نبوءتى ياطفلتى المسكينة.
فليتها كاذبة.. وياليتك لا تكذبين.
فأنا في ذكراى ، شقاء وقسوة.

# الكائن الليلى

أترقب خطواته التي يمشيها ليلا في هذا الاتجاه.. يخطو ببطء وتمهل، غير عابئ بما تحمله عباءة الليل الكالحة من خطر مستتر، لا يستطيع -أيا كان- توقعه: كلاب ضالة يأتى نباحها عاليا ليزعج الساكنين، وفئران قذرة تصعد على مواسير أكثر قذارة، قطط مشردة تبحث عن طعام في أكوام الزبالة، فلا تجد شيئا يذكر، فقد سبقها إلى نفس المكان شريدا أو متسولا في قيظ النهار.

لم يعط اهتماما لشئ من هذا القبيل، فقط كل ما يعنيه أن يسرى في تلك المنطقة المقطوعة، حتى يصل إلى هذا البيت المتهدم، ثم يدلف بداخله في سرعة، كأن وراءه سرا عظيما لا يعرفه آدمى.

شاب يافع، أسمر الوجه، ممشوق القوام، مفرود العود، نظراته حادة، يقف كالتمثال لا يزعزعه شئ.. كان يعمل خادما عندى، لم أعرف له أهلا، يلبى أوامرى بندهة صغيرة، لم أر منه يوما مكروها، كان مطيعا عفًا الى أقصى درجة.. لكن سكوته يقلقنى، لا يرد على بكلمة، لا ينطق إلا بما ندر، لا يناقشنى في أمر ما، فقط ينفذ، ويكون التنفيذ على أكمل وجه.. من النوع الذي يكتم بداخله ما لا تقدر أن تخفيه بئر عميقة، ومع هذا كله كان بكاء إلى أقصى درجة.

كثيرة هى المرات، التي دخلت عليه فيها، لأراه مرتكنا بجسمه النحيل إلى أحد أركان غرفته البسيطة، واضعا رأسه بين ركبتيه، يبكى بحرقة، ربما كان لبكائه صوت سمعه النمل والنحل!

حاولت مرارا أن أعبث بداخله، أحاول أن أقرأ الحروف المشفرة المكتوبة على جبينه، ولكن دون جدوى.

كنت أقول له: مابك، فيأتنى الرد اللاهث: لا شئ سيدى، فأسكت.

ومع مرور الأيام، حاولت أن أتغاضى عن حاله تلك، وتشاغلت عنها بأشياء أخرى، ربما كانت الأهم. فلما شعرت بآلامه تكبر، لم أجد بدًا من مراقبته وتتبع خطواته الليلة.

كان إذا انتصف الليل، وقمت لأنام، يخرج هو، بخطى مرتعدة إلى حيث هناك.. يدخل في حارات وأزقة لم أدخلها من قبل، يدخل بيتا، يجلس قرابة نصف الساعة، ثم يعود لينام في غرفته، التي خصصتها له حتى يقوم على خدمتى، لأننى بلغت من الكبر عتيا، وأولادى وأحفادى بعيدون..

حالتى الصحية السيئة والبرد القارص لم يمنعانى من مراقبته قرابة العشر ليال. ظننته في بادئ الأمر لصا، يسرق أشياء ومقتنيات من البيت ثم يخزنها في هذا البيت، حتى تجئ اللحظة التي يهرب فيها بسرقته. الغريب، أن كل شئ في مكانه.. ظننت كذلك أنه سئ السلوك، يذهب الى هذا البيت ليلهو ويلعب ويعاقر الخمر وربما يعاشر النساء، لكنه ليس من هذا النوع.

حتى جاء اليوم الذي قررت فيه أن أتبعه، وأقتحم عليه هذا البيت.. فما أن أطمأن أنه حضر لى عشائى وأعطانى الجرعة الليلة من دوائى، وظن أننى سأخلد للنوم، حتى نزل. تتبعته في حذر.. الليلة سينكشف كل شئ، سأعرف الحقيقة.

وصلت إلى البيت الذي يدخله كل يوم، مرت حوالى عشر دقائق، ثم دخلت.. لأرى مالا استطع نسيانه، كان الباب مواربا، فلم يشعر بى أحد.. الإضاءة ضعيفة، البيت فعلا قديم، لا يستحق أن يعيش فيه آدمى.. لم أره في الصالة الصغيرة ولا الغرفة التي تليها، دخلت الغرفة الأخيرة، فوجدته يمسك ملعقة تمتلئ حساء ساخنا، يقترب أكثر وأكثر، ليطعم عجوزا في أزدل العمر ويبتسم في وجهه، ويقبل يده، ويدعو له بالصحة.

# أم صابر

لم تكن الست فتحية قد تخلت بعد عن احترامها الزائد لي، أو كما بدا لي كذلك وقتها، عندما أخذت تروي قصة كفاحها المريرة، حتى أصبحت أرملة المعلم دياب، أكبر جزار في منطقتنا. بدأت قصتها عندما كانت في الخامسة عشر من عُمرها، حينما كانت فتاة تعبر لتوها مرحلة الطفولة إلى سن المراهقة.. نما جسدها، فأضحت آنسة بمعنى الكلمة، تتمتع بصفات أنثوية ترتعد لها أعتى الأشناب في المنطقة. تشتري الخضر لأمها من السوق الشعبي، الذي يوجد فيه دكان الجزارة الذي يملكه المعلم دياب، ذاك الذي كان يتلهف لرؤيتها، بيد أنه يكبرها بعشرين عاما تقريبا.

المعلم دياب، مازال في عنفوان شبابه، توفيت زوجته أثناء ولادة ابنه الوحيد، الذي توفي أيضا بعد أمه بيومين. عاش في وحدة يجمع المال ولا يعرف أين يصرفه وعلى من يصرفه. لكنه رجل يحتاج إلى امرأة لاشك، ففكر في الزواج مرة ثانية، فكانت العروس في هذه المرة الست فتحية. عندما تقدم لخطبتها، كان يتوقع أن ترفضه، نظرا لفارق السن الشاسع بينه وبينها؛ لكنها رحبت! ربما يكون قد ظن وقتها أنها وافقت عليه لمقدرته المادية ليس أكثر.. أثمر هذا الزواج عن طفلين، أحدهما اسمه

محروس، والآخر يُدعى سليم.

سمى المعلم دياب أحد أبنائه سليم، على اسم أخيه الأصغر، والذي كان يشاركه في دكان الجزارة. فتحية كانت تود أن تسمي أحد الابنين صابر، على اسم أخيها الذي مات في حادث سيارة على الطريق الصحروای، لكن المعلم دياب اتخذ القرار، واستخرج شهادتين ميلاد باسم محروس وسليم.

مرت عشر سنوات كاملة، والزوجان والأبناء في رضا بما قسم الله لهم من رغد العيش وسعة الرزق. لكنها لم تدم طويلًا، فقد توفي الزوج بعد صراع لم يكن طويلًا مع المرض الخبيث، الذي أجهز عليه في غضون شهور، وترك طفلاه وزوجته في رعاية أخيه الأصغر سليم، الذي تولى بدوره إدارة الدكان، ومن ثمّ أصبح مسؤولًا عن تربية أطفال أخيه.

سليم شهوانى، ينصرف للذاته الشخصية، غير عابئ بالمجتمع الذي يعيش فيه. كان سيء الطباع حاد المزاج، شرس، عربيد، طويل اليد، قليل الأدب، يتصرف بغشم، يُضيّع إيراد الدكان على أهوائه ونزواته، لا يُعطى لأرملة أخيه إلا القليل من المال، ويحتفظ لنفسه بنصيب الأسد. يزورها كثيرا بحجة الاطمئنان على أبناء أخيه، لكنه في الحقيقة كان يراودها عن نفسها.. فاستعصمت، وصدته بالقوة.. قالت له في غيظ:

"اختشي على دمك، استحى من لحم التُرب، إنت ماعندكش دم،

صحيح اللي اختشوا ماتوا!"

لما يأس من استجابتها له، قرر أن يحرمها وأطفالها من الملاليم التي كان يعطيها إياها من إيراد أكبر دكان جزارة في المنطقة كلها. لكنها عزمت وقررت أن تعتمد على نفسها، وأن تقوم بأي عمل شريف، حتى تطعم أولادها من الحلال. فاستلفت بعض الأموال من جارتها، ونزلت سوق الجمعة، واشترت ماكينة خياطة مستعملة، لكن مازالت تعمل بكفاءة. ثم أخذت تقص وتفصل فساتين وعباءات النسوة بالمنطقة. تعلمت هذه الهواية من والدتها، التي كانت تشتهر ببراعتها في عمل التصميمات المختلفة للعرائس. وأنعم الله عليها من الحلال، حتى تمكنت من أن تسدد دين الجارة في أشهر قليلة، وفوقه عباءة صوف هديةً، جزاء المعروف الذي فعلته من أجلها.

كانت غطرسة سليم العم تزداد يومًا بعد يوم، فمقته الطفلان، لما علما أن عمهما قد سرق حقهما في الدكان. شعرا بأنه يضايق أمهما بطريقة ما.. كان الطفل سليم أشد كرهًا لعمه، لا يطيق أن يسمع حتى اسمه.. وكره اسمه، وكان يقول دوما لو أن أبي على قيد الحياة ورأى ما يفعله بنا عمي سليم ما فكر لحظة أن يسميني على اسمه. كان يشتاط غضبًا إذا ناداه أحد باسم سليم، وكان يقول بغلظة وتنمر: اسمي صابر مش سليم، أنا اسمي صابر.

سليم -أو صابر كما يحب أن يُنادى- على درجة كبيرة من الوعي والذكاء والإدراك، فقد كان في العاشرة، بيد أنه يتكلم بعقل شاب في العشرينيات.

كره سليم اسمه أيما كره، حتى جاء اليوم الذي طلب فيه من أمه أن

تغير له اسمه في شهادة الميلاد، ليصبح صابرا بدلا من سليم. استصعبت الأم حدوث ذلك، لكن مع كثرة إلحاحه وتهديده بألا يذهب إلى المدرسة بعد اليوم، حتى لا يُنادى من مدرسيه وزملائه بهذا الاسم، نوت مرغمة على أن تبدأ فورًا في إجراءات تغيير الاسم. وبعدما قضت شهورًا في إجراءات روتينية لا تنتهي، ما بين مكتب الصحة وقسم الشرطة ومصلحة التوثيق، استطاعت أن تجعل اسمها في الحارة وفي كل مكان أم صابر، بدلا من أم سليم.

# الأستـــاذ

قبر المرحوم،، المتوفي يوم..

كلمات اقرأها بعينين يملؤهما الحُزن، وتحرقهما الدموع.. رحل أستاذي عالم علم النفس العظيم، أقف أمام شاهد قبره اليوم لأحيي ذكراه وأتذكر محاسنه العظام، ذاك الذي طالما أضاء صفحات الجرائد وقنوات التلفاز ووسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة.

مازلت أقف أمام قبره في انكسار، لا أستطيع أن أرفع عينيّ عن الأرض، كأنها تسمرتا في قدّمي، دموعي تنهمر، فتُغرق الأرض، تروي الحشائش بملحها ومائها. أفقت، حين أحسست بوقع تلك الأنامل الصغيرة على كتفي الأيسر.. نظرت إلى الخلف في تباطؤ، لأرى ابنه. نظرت إليه نظرة باكية، فرأيت دمعة كبيرة تهبط من عينيه في سُرعة مذهلة، كأنها صخرة مرمرية هبطت من قمة جبل فولاذي.

لم أكن أعلم أنه سيأتي أيضًا في صبيحة هذا اليوم ليزور أباه، لكنها عادتي آتي كل يوم خميس بعد المحاضرات، لأجلس في حضرة أستاذي الفقيد، حتى يأتيني الغروب، أناقشه وأحاوره وأجادله، تمامًا كما كنت أفعل في فترة الكلية. مازلت أستشيره في أموري العصيبة، حتى وهو ميت.. يكفيني أن أستحضره في خيالي، وأتحدث معه كأنه يقف أمامي، بقامته العالية وصوته الجهوري.

عندما رأيت ابن الأستاذ، تذكرت موقفًا حدث بيني وبين والده.. فقد كانت له آراؤه التي لا تضاهيها الجبال العوالي. كان يرى الدُنيا من منظار دقيق، يستطيع من خلاله أن يُقيّم ما يدور في لحظات. طلب منا الأستاذ بحثًا عن جزئية من علم النفس الاجتماعي، وعرض علينا الأفكار، وترك لنا مساحةً كافية من البحث والوقت. فذهبت إلى مكتبة الكلية العامرة، لأجمع المعلومات اللازمة كي تُساعدني على عمل البحث ليخرج بالصورة التي تليق بالأستاذ، سهرت الليالي أجمع المعلومات وأرتبها وأكتبها وأُنقحها وأراجعها، كي أعرضها عليه. عندما انتهيت، ووصلت إلى خاتمة البحث، كتبت تلك العبارة المُلحة (أستاذي الفاضل.. أشكر جهدكم الرفيع في خدمة أبنائك الطلبة، لكني أرى من وجهة نظري، التي لا ترتقي لمقام سيادتكم، أننا في حاجة إلى كثير من التوضيح والتنوير عن شخصيتكم الغامضة، التي لا يعرف عنها الكثيرون، دون أدني تطفل على حياتكم الشخصية، ولكم جزيل الشكر..

**مقدمه لسيادتكم الطالب\.....**

وهكذا أنهيت بحثي وقدمته لأستاذي يدًا بيد، وانتظرت حتى يقرأه، وتأتي آراؤه وانتقاداته البنّاءة التي أجلها. لكن الأستاذ قد غاب عن الكلية أسبوعًا كاملًا، وهذا كثير جدًا لمن يعرف شخصية الأستاذ المحبة للعلم والعمل، فتفشى القلق في نفوس الجميع، أساتذةً وطلبة بل وعمال الكُلية.

الخبر الأليم قد أحل الحُزن الكبير الذي لا يساويه حُزن..

تُوفي الأستاذ الكبير إثر أزمة قلبية مفاجئة، في عصر يوم الأحد الأليم، فلم أتمالك نفسي من هول الفاجعة، وسقطت مغشيًا عليّ، وبقيت في

غيبوبتي قُرابة الثلاثة أيام. ولما أفقت، وشعرت أنني مازلت على قيد الحياة، تمنيت الموت.. أقول تمنيتُ الموت..

جاء ابن الأستاذ ليُسلم أبحاث الطلبة مرة أُخرى، وعندما استلمت بحثي بيد مُرتجفة، قلبت في أوراقي في شجون، حتى وقعت عيناي على العبارة التي تركتها للأستاذ، فخفق قلبي عندما وجدت هذا الرد في أسفل منتصف الصفحة..

"يابنى.. لو علمت الغيب، لاخترت الواقع"

# انتمــاء

كُنا نقف مُتلاصقتين في الميدان..

تعلو أصواتنا بنداء واحد، لاتزحزحه الأقدار، ولا عمل الأحقار..

نقول بعُلّو صوتنا: الشعب يريد، نحن الشعب، ونحن من نريد..

أنا فتاة مُسلمة مُتدينة ومحجبة، لم أرضَ بالذل يومًا، وأخذت العهد على نفسي أن أقاتل من أجل الحُرية، حتى آخر نفس يخرج من أنفي وفمي. كنت من أولى الناشطات اللائي وُصفن بأبشع الاتهامات، في عصر تصور فيه البعض أن التحرر عيب، وأن كلمة المرأة عورة.. أقول إن ديننا قد كرم المرأة أجل تكريم، وهي نصف المجتمع، بل النصف الذي لا يستغنى عنه هذا المجتمع. لم تمنعني تربيتي في بيتٍ مُحافظ يصون القيم والمبادىء واحترام الآخر وتقبل ثقافته، من أن أنزل مع أول لحظة قال فيها الشعب: نحن نُريد.. نمتلك حنجرة قوية تستطيع أن تُعبر بنعم أو لا..

رأيت شبابًا لا يتحرشون، لا يتشاحنون، لا ينظرون إلى الدنيا الهالكة.. رأيتهم يحمون فتيات هُنّ إخوتهن.. انصرفت الشهوة الفانية وسادت العفة والمروءة.

رأيت عجائز يدعون لنا بالتوفيق.. كنت أرى أطفالًا وصبية يرددون كلماتنا وشعاراتنا وهم يجهلون معناها، ولكن سيأتي اليوم ليدركوها جيدًا، وسيفتخرون لأنهم كانوا في قلب الحدث.

أذكر أنني عندما كنت أقف مع المتظاهرين في الميدان، وقد حاولت

أجهزة الأمن التعامل الغشيم معنا في أول الأمر، وقامت باستخدام الغازات المُسيّلة للدموع وغيرها من الوسائل التقليدية، التي يظنونها تردع وتُفرق.

اليد التي ضمتني واحتضنتني عندما سقطت أرضًا كانت يدًا مسيحية، تلك التي كانت أول من سألتني هل أنا بخير.. فتاة مسيحية، كانت تُلاصقني طول الوقت. كنت لا أعرف أنها كذلك،فلما عرفت شعرت براحة كبيرة.

مريم، تلك التي كانت تزأر كالأسود مرددة: الشعب يُريد.. فلما أعمتني الغازات كريهة الرائحة كانت هي أول من قدم لي قناعًا ليحميني، وقالت لي بدفء: ارتدِ هذا القناع، سيقيكِ من تأثير هذه الغازات، فقلت لها ممتنة: شكرًا لك، ما اسمك؟ فقالت: مريم.. مريم جورج.

# رجل الإسعاف

أشعر بمتعة ولذة غريبة، عندما أستمع إلى نوادره مع المرضى وأقاربهم. كنت أشعر أنني أشاهد فيلمًا مجانيًا، دون أن أدخل إحدى قاعات السينما. يصور لي الحدث بكامل تعبيرات وجهه وجسده الضئيل، كأنني أعيش فيه بالفعل.. حكى لي الكثير عن مهنته ومتاعبها، وأسرارها ومخاطرها، لكن هناك قصة منها مازالت عالقة برأسي إلى الآن.

كنت في النوبتجية، في جراج الإسعاف، جاء اتصال يقول إن هناك حالة يلزم إسعافها في الحال، في أول طريق صلاح سالم. وبالفعل، تحركت أنا وسائق الإسعاف، وكان وقتها الأسطى زكي هو سائق النوبتجية.. كنا في حوالي الساعة الخامسة عصرًا، والغروب على الأبواب.

تحركنا بالسيارة على الفورّ، وشغل الأسطى زكي السارينة، حتى يخلو الطريق من السيارات والناس.. وما هي إلا دقائق، حتى وصلنا إلى مكان الحادث، فأوقفنا السيارة على بعد أمتار قليلة من التجمع الجماهيري، الذي نجده دائمًا، ينم عن تأثر الناس. ارتديت مسرعًا قفاز الأمان في يدي، على حسب التعليمات، وأديت الخطوات التي تدربت عليها في الوزارة لإسعاف المرضى، ووسط الزحام تسللت بصعوبة، لأصل إلى الشخص المستهدف.. رجل في أواخر الخمسينيات من عمره، الشعر الأبيض قد بدأ في الزحف إلى رأسه ولحيته وشاربه، قمحي البشرة، متوسط الجسم، تبدو عليه علامات

الشقاء.. يبدو أنه موظف حكومي صغير من مظهره. سألت الواقفين عن سبب الحادث، فقال شاب إنه وقع عليه قالب كبير من الحجارة، وهو يعبر الطريق، فأفقده الوعي.

وبحرفية، نقلت المصاب في تؤدة على السرير إلى السيارة، وانطلق الأسطى زكى إلى مستشفى قصر العيني الفرنساوي، ليتم إسعافه في أسرع وقت ممكن.

تعلم يا دكتور محمود أن سيارة الإسعاف مجهزة على أكمل وجه، وبدوري عندما أغلقت الباب الخلفي للسيارة، قمت بتركيب جهاز الاستنشاق على فم وأنف المصاب، حتى تتمكن رئتيه من التنفس والعمل الحيوي بانتظام. كانت أنفاسه تعمل، في غيبوبة شبه كاملة، يفيق منها ثم يغيب ثم يفيق.. عندما يفيق، ينزع قناع التنفس من على أنفه، ليتكلم ثم يصمت.

حاولت أن أهدئ من روعه، فلا أريده أن يبذل مجهودًا إضافيًا، فيكون عبئًا عليه. فعندما أفاق في إحدى المرات سألته: اسمك إيه يا عم الحاج؟ فقال بصعوبة كأنه يقتلع الكلام: اسمي حسنين، حسنين.. فقلت في رقة وسلوان: معلش يا عم حسنين، إن شاء الله تبقى كويس، وترجع لأولادك، هو أنت عندك أولاد؟!

فقال بنفس متقطع: عندي أربعة، ثلاث أولاد وبنت. فالتزمت الصمت حتى لا أرهقه، ولكنه أراد أن يُكمل فقال: ولادي الثلاثة اتجوزوا وهاجروا لبلاد برة، وأنا عايش أنا وبنتي بس بعد وفاة مراتي. ثم شعرت أنه يتنفس بصعوبة، فوضعت قناع التنفس على أنفه وفمه وقلت محذرًا: كفاية كلام يا عم حسنين علشان صحتك.

توجست أنها ربما تكون آخر كلمات ينطقها، فقال بمنتهى الحكمة: أنا كنت باعدي الشارع علشان أشتري لبنتي هدية في عيد ميلادها زي ما وعدتها، بس الظاهر مافيش نصيب!

فقلت في شفقة: ماتقولش كده يا عم حسنين إن شاء الله تشتري لها أحلى هدية في الدنيا وتفرّح قلبها وتفرح معاها.

لكنه لم يرد هذه المرة.

انتظرت رده، فلم يأتِ، فوضعت أطراف أصابعي على أنفه، فلم أشعر بنفس يدخل أو يخرج، فوضعت أذني على صدره لأسمع أنفاسه، فلم أسمعها.. فقلت للأسطى زكي في حسرة: اطفي السارينة يا عم زكي خلاص الحالة ماتت.

كانت الدموع تنهمر من عيني في غزارة، لم أعرف ما سبب تأثري بهذه الحالة بالذات، مع أنني قد رأيت مثلها طوال عملي كمُسعف، كم من الحالات التي فارقت الحياة في طريقها إلى المستشفى. بيد أن كلام عم حسنين هذا أبكاني، فظللت متأثرًا بحادثته لشهور عدة.

وصلت الإسعاف إلى مستشفى قصر العيني، وتم وضع الجثة في ثلاجة حفظ الموتى، ووُضعت الأغراض التي كانت في جيبه في الأمانات، بعدما أخرجت من أحد جيوبه هاتفه الجوال، وقمت بالاتصال بآخر رقم كان رحمه الله يحادثه، فقلت: ألو..

فجاءني صوت أنثوي رخيم: أيوه يا بابا انت فين..

فلم أتمالك نفسي، وفاض بحر الدموع التي لم تتوقف، فحاولت جاهدا التماسك قائلًا: أيوه.. حضرتك بنت الأستاذ حسنين عبد الدايم؟

فترددت لحظات ثم قالت: أيوه.. مين حضرتك؟.. هو فين بابا؟! فقلت في سرعة حتى لا أُفكر في معنى الكلمة: البقية في حياتك

تركت الهاتف من يدي، فالتقطه الأسطى زكي فأكمل قائلًا: أيوه يا آنسة والدك تعيشي انتِ، هو دلوقتي موجود في مستشفى قصر العيني الفرنساوي، وياريت تيجي بسرعة عشان تستلمي الجثة.

ابتعدت قليلًا عن الأسطى زكي، وجلستُ على أحد أحجار المبنى الخارجي للمستشفى، واضعًا يدي على ركبتي، باكيًا بحرقة وبصوت مسموع بكاءً هستيريا.

# جريئـــة

تحاول أن تحشر جسدها اللدن بقوة وسط الأكتاف، تريد أن تصل إلى المنصة حيث يقف، كانت تشعر بآلام كثيرة تجتاح جسدها، إثر التكدس الشديد الذي خلفته الأجساد المتزاحمة، لكنها تهون في مقابل أوجاع القلب، التي لا تلتئم بمرور الزمان.

تريد أن تقول له كلمة واحدة، ربما لن تقدر على قولها مرة أخرى، ربما لن تتاح لها فرصة أخرى لكى تعبر عن خبيئتها، إذن فهى الفرصة الأولى والأخيرة والوحيدة، والحياة فرصة، فإن أتت هى، فلا تنتظر أنت.

كانت تتابعه في اهتمام كبير شغل حياتها، وملأ شغاف قلبها.. تقرأ كلماته التي لا تفارق أذنيها، تشترى كل ما يكتب من قصص وروايات وأشعار ومقالات، بل تحفظ عن ظهر قلب كل كلمة ينطقها لسانه.. تتابع حواراته الشيقة في برامج الإذاعة، وكلما سمعت منه كلمة انجذبت إليه أكثر، حتى أصبحت لا تطيق أن تمر ساعة دون أن تقرأ شيئا يخصه. كلماته أثرت فيها تأثيرا لم تفعله كلمات سواها، تشعر أنها ليست كالكلمات، تحس أنه يخاطبها هى، لا سواها.. عنده القدرة الهائلة على أن يجعلك تصدق، ويملك من الصنعة ما يجعلك تشعر أنه يقصدك أنت، دون غيرك.

تنتظر كتاباته التي تصدر أول كل شهر في إحدى المجلات الشهرية..

تشترى هذه المجلة، ولا تقع عيناها إلا على الصفحة السابعة، حيث صورته تقف بجوار حروفه. كذلك تنتظر برنامجه الأسبوعى كل ثلاثاء، على إحدى محطات الإذاعة، حتى أيقنت أن الحياة بالنسبة لها هى كلماته وتعبيراته.

البداية كانت حين عرفته صدفة، وهي تتصفح إحدى المجلات عند بائع الجرائد. شدتها المجلة.. ليس لما تحويه، بل لأن عينيها المتفحصتين قد وقعتا على عنوان أذهلها حد الهوس، فاشترت المجلة، وقرأت ذاك المقال الذي اجتذبها. ومنذ ذلك الحين، قررت أن تبحث عن الكاتب أكثر وأكثر، وأن تتابع كل إصداراته، بل وتراسله اليكترونيا عبر الإيميل الشخصى.

كانت إذا قرأت كتابًا له، تراسله، تشكره وتثنى على كلماته، فلا يرد إلا بكلمة شكرا. وكانت تكفيها وتفيض، وتغرق قلبها أملا في أن يأتى اليوم الذي ترى فيه كاتبها وجها لوجه، دون ذبذبات إذاعية غاية في البعد والتعقيد.

ذات مرة، عندما كانت تقرأ في المجلة عن أخباره، قرأت أنه سوف يلقى ندوة في إحدى القاعات التابعة لكية التجارة- جامعة القاهرة، يوم كذا في ميعاد كذا. وما إن قرأت تفاصيل الخبر، حتى فرحت كثيرا، وأحست أن حلمها قد دنا منها، فانتوت أن تحضر هذه الندوة، مهما كانت العوائق.

أرادت أن تجلس في المقدمة، أمامه مباشرة، لكنها فوجئت أن القاعة ممتلئة عن آخرها، مع أن الوقت المتبقى على بدء الندوة يزيد عن الساعتين!.. وما الغريب في هذا، ومثله يحظى بالقبول الوفير، والقاعدة الجماهيرية العريضة. استسلمت للواقع.. اجتذبت مقعدا من الخلف، يبتعد عنه بضع مترات.. يكفيها أنها تراه وجها لوجه، مع أنها تحفظ عن ظهر قلب معالم وجهه البسيط، الذي يطل على أغلفة المجلات في ألق.

ومر الوقت كالدهر، حتى جاء موعد الندوة. وكعادته، جاء في الوقت المناسب.. تقريبا لم يتأخر أو يتقدم دقيقة، ودخل القاعة، وسط هالة من المعجبين والمريدين، وتصفيق حار من الحاضرين. لم تره حتى صعد إلى المنصة، فظهر وكأنه نجم فريد، يسطع في سماء المجد والعلاء.

ومرت كلماته كالبرق، وانتهت الندوة كالضوء، بعدما غمر الجميع بكلماته الرقراقة. وبعد أن استأذن في الرحيل، همت أن تنفذ ما انتوت، وبدأت تأخذ طريقا إلى المنصة وسط الجماهير الغفيرة والقلوب المتأججة والأيادى المتشدقة بالتصفيق والعيون الممتنة.. ولكن ازدحام القاعة منعنها من أن تصل إليه إلا بعد مشقة،

"وبعدما صارت على بعد سنتيمترات قليلة، كانت ستلمس الحلم بيدها، ابتعدت عنه مرغمة وسط الحشود، لكنها قالتها يغادر المكان.. قالت بعلو صوتها: أحبك ياأستاذ، أحبك ياأستاذ.. بيد أنها لم يسمعها، ولم ينتبه لكلماتها"!..

# صرخة ميدان

تقف في الميدان، وسط الجماهيرالعريضة.. يسيل العرق من جبينها، ترفع يديها حاملةً لافتة بيضاء مكتوب عليها بالخط الأسود العريض: " الشعب يريد... "

هذا هو اليوم الخامس لها في الميدان، لم تحلم قط أن تقف هذه الوقفة، وتهتف بأعلى صوتها من صميم قلبها.

سيدة في التاسعة والعشرين من عُمرها، حباها الله جمالًا مُغلفًا بعقل رشيد. منذ باكورة شبابها وهي تُنادي بالإصلاح ناشطة معروفة، تنتمي لإحدى الحركات الثورية، التي طالما ضيق عليها من هؤلاء الذين أغرقوا البلاد وأغرقونا معهم.

بدأت حملتها المُدهشة على مواقع التواصل الاجتماعي، فكانت صفحتها مشهورة جدًا في الوسط السياسي، وكانت لها مُدونة خاصة، تخط فيها ما ترى من أحداث دون تقييد أو مُراقبة. كانت تشعر أن يوم التغيير آتٍ لا محالة، فتستنفر همم الشباب بعباراتها المؤثرة وكلماتها المعبرة، حتى جاء ذلك اليوم، الذي ابتسمت فيه وبكت.

هي تسكن بالقرب من الميدان.. تبعد عنه مسافة خمس دقائق سيرًا على الأقدام، فكانت تعيش ساعاته لحظة بلحظة، تراقب وتترقب.

ومع اندلاع الثورة، توهجت القلوب وتوحدت الألسنة، من أجل

مطلب واحد. كانت في المقدمة، ترفع لافتاتها المُعبرة، لا تعبأ بالازدحام الشديد في الميدان، لا تهتم بقلة الراحة، فقد كانت تؤمن أن الراحة آتية لا ريب، ولكن ليس قبل الكثير من التعب والصبر.

ذات يوم، قررت أن تصطحب ابنتها معها إلى الميدان، زهرة صغيرة تشبهها في نظرات عينيها، فوقفت الطفلة مشدوهة ومذعورة مما يحدث حولها. كانت تُمسك بطرف ردائها بقوة، لا تريد ألا تفلت منه. حماقة كبيرة من سالي أن تصطحب طفلة صغيرة إلى مثل تلك الأجواء والتوترات؛ ولكنها كانت ترى أنه لابد لطفلتها أن تعيش مثل هذه اللحظات التاريخية، التي لا تتكرر.

عندما جاءت ساعة الظهيرة، حيث اشتد ازدحام الميدان، وبينما كانت ترفع إحدى اللافتات ويدوي زئيرها مُناديًا ومتوعدًا الظالمين، نظرت إلى يمينها فجأةً، فلم تجد طفلتها، فمنعتها صدمتها من أن تصرخ. ومن ذا الذي يسمعها في هذا المشهد المهيب؟!.. لكن الصرخة خرجت رغمًا عنها، فاختلطت بصيحات الجماهير الثائرة.

مرت ساعتان دون جدوى، تاهت لطفلة وسط الزحام، ففقدت سالي الأمل في العثور عليها. كيف ستجدها في وسط الملايين الحاشدة؟.. انهارت الأم المكلومة، وانخرطت في بكاء هستيري وعويل، ندمت أشد الندم أنها اصطحبت ابنتها إلى هنا؛ ولكن هل يُعزي الندم!!

وبقلب الأم المرهف، سقطت وسط المتظاهرين، وفقدت الإحساس بالعالم كله، فقام نفر من حولها بنقلها إلى جانب الميدان، وقدموا لها الماء والدواء، وكثير منهم يُصبرونها قائلين: "ستجدينها إن شاء الله، سيجدها شخص ما، لا تقلقي". فكانت تهز رأسها دون حيلة، ولم تفق من غيبوبتها

إلا على صوت منادي الإذاعة الداخلية بالميدان يقول: والدة الطفلة شروق تتوجه إلى منصة الميدان.

لم تملك الأم نفسها من الفرحة.. بكت بنواح عالٍ، وهرولت إلى حيث صوت المنادي.. وعندما رأت طفلتها، التي تيقنت أنها لن تراها بعد هذا اليوم، احتضنتها بشدة وقبلتها بعُنف، ورجعت بها مُسرعةً إلى البيت، وظلت تلك الحادثة مستكينة في رأسها، لم تنسها.. كما لم تنس معها أنه ذات يوم.. كانت هناك ثورة.

# فـــي العيادة

كان الضجيج بالخارج هائلا..

أجلس في عيادتي الخاصة، أناقش إحدى رسالات الدكتوراه لأحد المتقدمين، وبينما أنا في قمة تعمقي في قراءة موضوع الرسالة، أفاقني هذا الصوت وتلك الضجة المصاحبة. فتح الباب في توتر، فقالت الممرضة في خوف: معذرة سيدي هناك حالة خطيرة بالخارج.

ودون أن آذن بدخولها، كان أمامي بالفعل.

رجل أربعيني، قوي البُنيان، يحمل سيدة من البادى أنها زوجته، وتتبعه سيدة عجوز متهالكة البنية في بطء وحَيطة. قال الرجل بلسان مرتعش: سيدي، أنقذ زوجتي، فقلت في حذر: ما الأمر، ماذا جرى؟!

فقال وهو يضعها على سرير الكشف: لقد سقطت منذ ربع ساعة تقريبًا غائبةً عن الوعي، فقمت مُسرعًا واتجهت نحوها لكي أقيّم وظائفها الحيوية، فلما اقتربت منها وجدت آثارًا واضحة لكدماتٍ وسحجات بالوجه والأنف، وهالات سوداء تحت العينين وفوقهما، وثياب مُقطعة وآثار دماءٍ وعنف بالنصف العلوي من الجسد.

قلت في تدبر: إذن فالأمر كذلك؟!

نظر لي الرجل نظرةً ذات معنى، ثم أطرق برأسه إلى أسفل، فباردته قائلًا: أرجو أن تنتظر بالخارج إذا تفضلت.

خرج مرغمًا، فوجهت نظري إلى السيدة المُلقاة أمامي، وسألتها في رفق: ماذا حدث؟!

لم تستطع النطق، فقالت أمها وكأنها تجتر الكلمات من تحت إطارات قطار مسرع، كما بدا لي: هذا الوحش ضربها حتى أفقدها الوعى.

فقلت في غيظ لم أستطع إخفائه: ولِمَ يضربها، أهناك سبب؟!

فقالت الأم باكيةً: كُل ما فعلته تلك المسكينة أنها أخبرته أنها حامل في شهرها الثاني.

قلت في دهشة: إذن فالأمر كذلك، ألا يريد أبناء؟!

فأجابت الأم وهي تمسح دموعها بطرف منديلها: عندهم من الأولاد ثلاثة، وهو متعسر الحال لا يريد المزيد.

فقلت في روية: ألا يدري هذا الرجل أن الأولاد رزق؟!

هنا نطقت الزوجة لأول مرة في ضعف: هو لا يؤمن بأي شيء، يريد أن يعيش دون أدنى مسؤولية.. ماذا لو علمت يا سيدي أنني أنا التي تعول بيت الزوجية؟!

وخلال هذا الوقت القليل، كنت قد ضمدت جراح الزوجة بمساعدة الممرضة، وأعطيتها بعض المضادات الحيوية والمُسكنات ومضادات الالتهاب. مضيت أفكر في أثناء ذلك كله في أمر هذا الرجل.. عجبًا لهذه الدنيا!.. هذا رجل يضرب زوجته لكثرة الأولاد، وآخر يضربها وينهرها ويقسو عليها لأنه يريد ولد!!

# عم علي

كان صوتي عاليا، فاستيقظ فزعا، محاولا الرد على كلماتي المتشوقة. قال في ذهول:

دكتور محمود!!.. كيف حالك ياولدى؟

فقلت في ود: كيف حالك يارجل يا طيب؟

فأجاب في رضا تام: نحمده، قدر الله وما شاء فعل.

شفاك الله..

لا أصدق أن من آراه أمامي الآن هو عم علي، الممرض العجوز النشيط، الذي أفنى عمره في مهنة تتسم بالتوتر والانفعال، ذاك الذي قضى أكثر من أربعين عاما في هذه المهنة الشاقة التي تدر عليه القليل، ربما أقل القليل، لكنه عاش منها، وأطعم سبع أفواه وزوجة كل ما رجوه من الدنيا الستر واللقمة.

مرت على بالي ذكريات باهتة، وأنا أجلس أمامه على طرف السرير الممدد عليه، أنظر في عينيه الغارقة في بحور السقم.. هاتين العينين الضامرتين، اللتين قابلتهما منذ نحو عشر سنوات، في إحدى المستشفيات الحكومية التي عملت بها كأخصائي جراحة عظام، بعدما عدت من الخارج. أذكر اليوم الأول الذي قابلت فيه هذا الرجل، في غرفة العمليات.. كان قد قام توا

بواجبه التحضيرى قبل بدء العملية.. هو يعرف ماذا أريد بنظرة عين، لا يحتاج حتى إشارة بسيطة لينا ولنى نوعا معينا من المشارط أو المقصات أو غيرها، فخبرته الطويلة في مجال التمريض، وخاصة تمريض العمليات، واحتكاكه بكثير من الأطباء والجراحين المهرة، جعله يعى ويحفظ عن ظهر قلب خطوات إجراء عملية ما، من استئصال الزائدة الدودية أو المرارة أو البواسير أو الفتاء وغيرها..

يستحق بالفعل لقب مهندس غرفة العمليات، كما كان يطلق عليه آنذاك. فعلاوة على مهارته الفائقة في مجاله، فهو أيضا يمتلك ابتسامة دافئة، يأسر بها قلوب المرضى.. يداعب الطفل الصغير بلمسات أبوية حنونة، وإذا داعب شاب جعله على أتم الاستعداد لإجراء العملية وإن لمس فيها بعض الخطر.. يعرف نفسية المريض وملم بتقلباتها، وعلى هذا الأساس يتعامل مع الحالة المستلقية أمامه على منضدة العمليات.

كنت أحب العمل معه جدا، أكون في قمة التوتر إذا غاب عن العمليات لسبب ما، وهذا نادرا ما يكون، وإن حدث فهو خارج عن إرادته. أرتاح نفسيا عندما أراه يقف خلفى، بعويناته الطبية المستديرة شديدة التحدب، يحجب عينين غائرتين، وأنفه المفلطح متوسط الحجم، وجبينه الأصلع الذي جرى عليه الزمن وظهر منحنٍ ضريبة لأخذ السنين.

أجلس أمامه وهو على فراش المرض الذي لا يستأذن.. سقط الرجل بعد رحلة عناء مريرة في غرف العمليات، بين الأجهزة الطبية..

اكتسب صدقات عدة من مرضى كانوا على وشك أن يفقدوا الأمل في الحياة، بل ويفقدوا الحياة ذاتها.. ينظر إلىّ بعينين دامعتين على ما آلت إليه نفسه، ولكن ابتسامة الرضا واليقين تملأ وجهه الدقيق، فتضفى عليه سمات راهب أو قديس.

وأد حبال الصمت قائلا في ضعف:

مالك يابنى؟.. أشعر أنك متغير.

فأنتبهت قائلا: سلامتك ياعم على.

فقال بقلب ثابت:

أنا أعرفك جيدا، احكِ لى.

تذكرت حكاية لا تنسى من هذا الرجل الحكيم.. أذكر أننى تأخرت يوما عن أحد العمليات، ولكنى جئت بعد قليل، ودخلت غرفة العمليات في غاية التوتر، والعرق يتصبب من جبينى، ويداى مرتعشتين ونفسى مضطربة.. تلك هى حالى عندما أكون غضبان، أوعندما أفكر في أمر ما. وبعد جهد جهيد، وبمساعدة هذا الرجل الطيب، تم استكمال العملية بنجاح، وخلعت قفازى الطبى، واتجهت مسرعا إلى غرفتى الخاصة، ورميت جسدى على المقعد المواجه للسرير، ووضعت رأسى بين يدى في أسى وقنوط، فإذا به - عم على - يقف أمامى ويسألنى في لهفة:

مالك يادكتور محمود، ما بك؟!!

فقلت محاولا الإنكار: لا شئ.

فقال في إصرار: لا،، هناك أشياء وأشياء.

فقلت وكأننى أنزع حجرا كبيرا من فوق صدرى: ضاقت بي الدنيا ياعم على..

ولأنه رجل نبيل، لا يحب أن يكون متطفلا ولو بدرجة بسيطة، قال في ابتسامة رقراقة وبشاشة وجه لم أرها في سواه: حسنا لا بأس، لعله خير يابنى.

# حفاة عراة

حكايتى ياسيدى بدأت قبل أن أولد بخمس سنوات..

عندما تقابل أبى لأول مرة مع أمي في إحدى الهيئات الحكومية، حيث العمل الحكومى والطابع الوظيفى، الذي يفرض رتابته على الجميع. تزوجا، فجئت أنا، أول مولود بعد خمس سنوات من الزواج، فكانت الفرحة العارمة التي اجتاحت القلوب، ثم جاء المولود الثانى فالثالث وأخيرا الرابع.

نحن بنتان وولدان لأب وأم قد فارقا الحياة بعد جهاد مرير. تركا لنا الستر وكفى به نعمة. أنا الأخت الكبرى لأخواتى، وبعد وفاة والدينا صرت أنا الأب والأم والأخت أيضا. لم يتركا لنا مالًا أو متاعًا يذكر.. ثمة شقة صغيرة في منطقة شعبية، تتسع بالكاد لأربعتنا، ومعاش ضئيل من مؤسسة حكومية عتيقة، لا يقضى حوائج يومين في الشهر، فكان لا بد من العمل، والجهد الشاق حتى تعيش تلك الأجساد البالية.

حصلت على تعليم متوسط، مما أهلنى إلى حد ما لأن ألتحق بوظيفة محترمة في ديوان المحافظة.. مهنة بسيطة، ولكنها تساعد حتما في دخل البيت. أخى أيضا الذي يصغرنى بعامين قد حصل على دبلوم صنايع، قسم ميكانيكا، واستطعت أن أوفر له عملا في إحدى الورش المعروفة في المنطقة. أما أخى وأختى الصغيرين، فما زالا في التعليم الثانوى والإعدادى.

لا أنام الليل، أفكر كيف استطيع أن أنقذ هذه الأسرة المبتئسة من التشرد والضياع، أفكر في كل سبل العيش، وظيفتى الحكومية المجهدة لن تكفى، ووظيفة أخى الشاقة لن تجدى، فكان لا بد من البحث عن وظيفة أخرى بعد الظهر.

لم يترك لنا أبوانا عما أو خالا أو قريبا نلجأ إليه، كنا كأوراق بالية سقطت من شجرة كانت تنعم بالحياة في أيام مضت، وكأننا وجدنا في الدنيا دون غيرنا، فكانت مآساتنا أكبر ومحنتنا أشد.

ذات يوم، عدت من عملى في قمة الإجهاد، فاستطعت أن أجهز غداء سريعا لأخوتى، ثم دلفت إلى غرفتى باحثة عن راحة أتوق لها، واسلمت عينى للنوم، ولم أدر بما حولى. ثم قمت لكى أرتب البيت وأرى متطلباته.

وبينما كنت أعبث في أوراق والدى وجدت أوراق غيرت مجرى حياتنا!!

"وثيقة تأمين على الحياة"!.. لا أصدق ما تراه عيناى.. وثيقة تأمين على الحياة تدفع قيمتها للمتضررين أو ورثتهم، الوثيقة باسم والدى!!.. أخذت الأوراق إلى غرفتى، أغمض عينى مرات متتالية وأفتحها، لكى أبعد عن نفسي الشك، وأوقن أننى لا أحلم.. لم يذكر والداى شيئا من هذا من قبل، لماذا؟!.. لست أدرى؟!!

قمت فورا واتصلت بشركة التأمين، فكانت المفاجأة، قيمة التأمين تسعمائة وخمسون ألف جنيها فقط لا غير.. فقط لا غير!!.. ما أبوخ تلك العبارة! فقلت للموظف المختص مشدوهة: وما المطلوب إذن؟.. فقال: عليك بإحضار شهادة الوفاة، وتأتى إلينا غدا في تمام التاسعة صباحا، وسنقوم بإعطائك شيكا بالمبلغ، يصرف من البنك الذي تتعاملين معه، بعد

التأكد من صحة أوراقك.

أنهيت المكالمة ومازلت في عالم غير العالم.. استرجعت الدقائق التي مضت، وثيقة تأمين بهذا المبلغ الكبير، الذي وإن عملنا أربعتنا طوال العمر فلن نجمع نصفه، أجدها بعد وفاة والدى بتسعة أشهر كاملة بمحض الصدفة!.. ماذا لو لم أعبث بأوراقها؟ إذن لبقى هذا السر مدى الحياة، وربما فقدت تلك الوثيقة قيمتها بمرور الوقت، لأن لها موعد أقصاه سنة لاستلام قيمة التأمين، رباه!!

لم أنم ليلتى، ولم أخبر أحدًا من أخوتى ما علمت. وعند الساعات الأولى من الصباح، كنت أقف أمام باب شركة التأمين، محتضنة شهادة الوفاة، التي كنت قد صورتها ثلاث صور. انتظرت حتى بدأ العمل، وكنت أول عميل يقف أمام مكتب الموظف المختص.

أجلسنى الموظف على المقعد المواجه له، ريثما يتأكد من صحة الأوراق التي بين يديه. وعندما تأكد، ابتسم بثقة وهو يخرج لى شيكا معد مسبقا بقيمة التأمين، وناوله إياى في بشاشة. فما إن أمسكت الشيك بيدى المرتعدة، حتى رجف قلبى واهتز كيانى.. أنا أملك بين يدى كل هذه الأموال!.. أصبحت من أصحاب الورقات المالية، التي كنت أراها على شاشات التلفاز في برامج المسابقات التي تجرى الريق، بل تنشفه.

صرفت الشيك في نفس اليوم، ووضعت المبلغ كاملا في كيس أسود، كنت قد أحضرته في حقيبة أدواتى الشخصية، ثم هرولت إلى البيت. وما إن فتحت الباب، حتى وجدت أخوتى البوساء تتلوى بطونهم من الجوع، فاستلقطت

أنفاسي، وحكيت لهم الحكاية كاملة، فقال أخي الذي يصغرني مباشرة:

معقولة، لا أصدق..

فأجبته في ثقة:

هذا ما حدث، ولولا أن فضولي أرغمني على العبث في تلك الأوراق، ما كنا عرفنا بأمر تلك الوثيقة.

إذن ماذا سنفعل بتلك الاموال؟!

فقلت في قوة:

أولا، نترك هذه الشقة ونسكن في مكان أرقى.

وباقي المبلغ؟!!

ندير به مشروعا، نعيش منه ونكبر مع الأيام.

انتقلنا إلى شقة رحبة كاملة التشطيب، في أحد الأحياء الراقية بالقاهرة، وقمنا بشراء ماكينات للغزل، وبذلك أنشأنا مصنعا صغيراً للغزل والنسيج، يقوم على أداء ثلاث ماكينات. ومع مرور الوقت وكثرة الأرباح وتوسع الإنتاج، قمنا بإنشاء مصنع كبير، أصبح الآن من إحدى القلاع الكبرى للغزل، بما يملكه من إمكانيات مادية وآلية وبشرية، وصرنا من أثرياء القوم، الذين تظهر صورهم اللامعة على الصفحات الأولى من الجرائد.. مصنع الأخوة للغزل والنسيج.

كنا حفاة عراة، فأعزنا الخالق.. كنا لا نملك كسوة تقينا برد الشتاء، فألبسنا الله، فحل الدفء الذي لا يمرض. كنا لا نملك ثمن لدواء، فشفانا الله.. كنا أفواها جائعة وبطون فارغة، فأطعمنا من فضله..

لكننا نسينا، أو تناسينا أننا كنا من البؤساء، فتمردنا، فجاءت نهايتنا..

الطمع ياعزيزى، الطمع آفة النفس البشرية.. هو درب بنى البشر، ديدن كل جاحد.

نما الشك بيننا، ظهرت الأطماع والأحقاد.. كل منا يتهم الآخر بالخيانة والتربح، فدب صراع الأخوة، الذي كان وقودا لنيران الجرائد المستعرة، التي تطهو اللحوم العفنة.. وبعد أشهر قليلة من التناحر والتنازع، هلكنا جميعا.

# فى الغُرفة ٧٠٧

"على الطبيب خالد العشري التوجه إلى غُرفة العمليات".

أجلس في حجرة الأطباء في إحدى المُستشفيات الجامعية، أسمع جهاز المنادي الصوتي ينادى بنبرة مهيبة.

كررها ثلاث مرات، أسمعها كأنها حلم، أفتح عيني بصعوبة، أقوم في تكاسل، أنظر إلى نفسي وثيابي.. مازلت مرتديًا بذلة العمل (الاسكارب الطبي).. أحاول أن أفيق، أذهب إلى حوض غسيل الوجه، أملأ يدي بالماء وأرش على وجهي مرتين.. كنت في قمة الإجهاد بعد نوبتجية سهر طويلة أوشكت على الانتهاء.

بخطوات ثابتة، أخطو في طُرقات مبنى العمليات المنفرد عن الهيكل الرئيسي للمستشفى، أعدو مسرعا لكى أصل في الوقت المناسب، فربما تكون هناك كارثة ما.

خالد العشري، أخصائي جراحة الأوعية الدموية بالمستشفى الجامعي، أبلغ من العمر ثلاثين، مازلت شابًا ربما!! لكن أيادي الحياة عبثت بوجهي وكستني لباس الكهولة. الوقت غير كافٍ لأحكي عن نفسي، اقتربت من غرفة العمليات ٧٠٧، أرى تجمع غير قليل من الناس، رجال ونساء وأطفال، ولكني لا أنتبه إلى كل ذلك، فألتقط غطاءً للرأس والقدم، وآخر للأنف والفم، وأدفع باب الغُرفة بيدى.

وقفت بين الدكتور فؤاد منصور طبيب العظام، والدكتور شريف راضي طبيب التخدير، وبعض الممرضات وفنيى غرفة العمليات، ناظرًا إلى الحالة الممدة أمامي.

قال الدكتور فؤاد: حادث سيارة على الطريق الدائري قبل حوالي ثلث ساعة من الآن، هناك كسر مُضاعف في عظام الساقين مع احتمال وجود خلل دموي ولذلك طلبنا مُساعدتك،

فقلت في بديهية: على ما يبدو أن هناك فعلًا خللًا وظيفيًا في أحد شرايين الساق، وهذا ما دل عليه كل هذا النزيف والبقع الدموية،

فبادرني الدكتور فؤاد في جدية: هذا صحيح، وهذا ما دعانا لنقل دم من نفس الفصيلة للحالة.

لويت شفتاي وقلت في جلد: إذن فلا بد من تدخل سريع، ثم نظرت للممرضة التي تقف بجواري فألبستني بدلة العمليات (الجاون) بعد أن تعقمت بمنتهى الحرص.

ألقيت نظرة على طبيب التخدير المعاون والعلامات الحيوية للحالة قبل أن يتم سحب جهاز الإضاءة الرأسي ليقترب أكثر من مجال الرؤية (الفيلد).

أنظر في الساعة المُعلقة أمامي، التي تُصدر صوتًا استفزازيًا يبعث توترًا محمومًا في أثبت إنسان في الوجود. إنها الخامسة والنصف صباحًا، أحاول التركيز واستجماع الخبرات السابقة والتفكير في الحالة، لكني لا أستطيع، تذكرت ما أنساني أنني طبيبًا وجراح، بل ونسيت في الأصل أنني في غُرفة العمليات، وواجب عليّ أن أسعف مريضًا يرتهن عمره بالوقت.

تذكرت ما جعلني أزهد الحياة بعدما تفتحت لي الدنيا على مصراعيها،

تذكرت أحداثًا مضت ولكنها مازالت تؤرقني بين الحين والآخر، تصل رحمها معي على ما أظن.. زوجتي التي فارقت الحياة وفارقتني بغتة، ابني الوحيد الذي فارق أيضًا الحياة ولم يعرف ماهيتها بعد..

حادث السيارة الذي حدث لثلاثتنا قبل سنتين، فرحل اثنين وبقيت أنا أتجرع مرارة الفُراق، الكأس القاتلة التي أطفحها ما دمت حيًا.

خرجنا لنتناول العشاء، ونقضي سهرتنا خارج البيت، احتفالًا بحصولي على درجة الماجستير في الجراحة، لأصبح من كبار أخصائي جراحة الأوعية الدموية في المدينة كلها. الدرجة التي حصلت عليها بتوفيق المولى أولًا وأخيرًا، ثم بمساعدة زوجتي، طبيبة الأسنان الرقيقة.. أتذكر كم تعبت معي في تحضير الرسالة ومناقشتها، كم سهرت معي لكي تُحفزني وتشد من أزري.. حتى جاء اليوم الذي توج مجهودي وحصدت النجاح، وفي نفس هذا اليوم الذي بدأ بالبهجة وانتهى بقمة التعاسة والضياع، خرجنا ثلاثتنا لنسهر ونستمتع. كنا فرحين وكأن الدنيا قد جاءت راغمة بين أيدينا نلهو بها كيفما نشاء.

قضينا أحلى سهرة في العمر على ضفاف النيل.. كنا في أواخر الربيع، حيث الجو المعتدل تتراقص فيه نسمات منعشة. سهرنا إلى قُرابة الرابعة فجرًا، وقمنا عائدين إلى البيت بعد سهرة ممتعة، لم تتكرر رغم أنف الجميع.

قدت السيارة على طريق صلاح سالم المؤدي إلى البيت، انفتاح الطريق أغراني بأن أسرع أكثر فأكثر، فقالت لي: براحتك يا خالد انت مستعجل ليه؟!

نظرت إليها.. فكانت آخر نظرة!

حدث ما حدث، جاءت سيارة نقل فقطعت الطريق في مفاجأة

مذهلة.. حاولت تفاديها والخروج بأقل الخسائر، فانحدرت قليلًا إلى اليسار، فجاءت الصدمة لتحطم يمين السيارة بمنتهى القوة.

من يجلس على يميني..؟!

زوجتي، وابني في المقعد الخلفي، أصبت ببعض الكدمات والرتوش، لم أنظر إليها إلا بعد فترة من الحادث، مُسرعًا حاولت أن أحتضن زوجتي..

جاءت الإسعاف ونقلتها للمستشفى، تلك التي أعمل بها، وتم إدخالها فورًا إلى غُرفة العمليات، تلك التي أقف فيها الآن.. كانت حالتها خطيرة، في منتهى الخطورة.

تُوفي ابني في نفس مكان الحادث، فكانت الصدمة الأولى.. لكني تماسكت لوقت غير كثير، حتى انهرت تمامًا حين فارقت هى الحياة في حوالي الساعة الخامسة والنصف تقريبًا، وقع الخبر على رأسي كالمرزبة، فهويت مغشيًا عليّ.. ضاع كل شيء، ماتت إثر نزيف حاد بالمخ نتيجة خبطة مباشرة.

كان الوقت غير كاف بالمرة لإسعافها، فخرجت روحها إلى بارئها.

أفقت من الغيبوبة بعد يومين تقريبًا.. التزمت البيت، واعتزلت الناس لمدة شهرين. حاول أصدقائي المقربين إخراجي من هذه الحالة النفسية المزرية، ومع ضغطهم الشديد وحديثهم معى، قررت أن أعود من جديد، أعود لكي أعيش على ذكريات فائتة، ولكنها المؤنس الوحيد

غرقت في بحر الأفكار الذي لا ينتهي، ولم يوقظني إلا صوت الدكتور فؤاد زاعقًا: خالد.. دكتور خالد، خير، في حاجة؟!

كررها أكثر من مرة ولم أسمعها إلا في الرابعة أو الخامسة..

نظر الجميع لي في ذهول.. حاول الدكتور شريف أن يقول شيئا، ولكنه

لاذ بالصمت. ارتبكت للحظات، ولكنني حسمت الأمر: دكتور فؤاد، معلش مش هقدر أكمل، أنا تعبان قوي مش مركز خالص، ممكن تطلب مساعدة أخصائي تاني غيرى.

تفهم الدكتور فؤاد طلبي، وتركني أخرج مُسرعًا من غرفة العمليات أنظر إلى الأرض، بعدما نزعت غطاء رأسي وقفازي يدي ولم أكلم أحدا.

العيون تنظر إليّ، ولكنني لم أتحدث مُطلقًا.. القلوب مُعلقة بتعبيرات وجهي.

أسرعت أكثر وجلست على أحد المقاعد في آخر الطُرقة، ووضعت رأسى بين يدي وبكيت بكاءً مريرًا، ولم أفق إلا على صرخة هستيرية مدوية رجت المكان بـأكمله.

# قوم جبارون

تحاول جاهدة أن تفيق من سهادها المرهق، مع أولى أشعة للصباح. قد تأخرت اليوم قليلا عن عملها الشاق المؤبد، وإن تأخرت أكثر من ذلك فلن تجد إلا سياطا خشنة تضرب في قسوة، ولطمات نارية لا تبق ولا تذر.

بدأت حكايتها مع الزمان في سن مبكرة، عندما كانت تلهو وتلعب ولا تفكر فيما تخبئه الأقدار المتربصة.. تمرح كفراشة في بستان، تترك هذا الغصن لتستقر على آخر، لا يعنيها شئ إلا أنها تعيش الحياة.

وعندما تفتحت الزهرة الجميلة، تكالب كثير على قطفها، ودون أن تعرف شيئا عن الحب قطفها أول عريس طرق باب البيت، ودون أن تعرف شيئا عن الزواج أصبحت زوجة لإنسان غريب مارق، خطفها من أهلها، وسلبها أحلامها.

عاشت أياما كالحة كسواد الليل البهيم، تلقى جسدها في أحضان قاسية لا تعرف الرقة، وكأنها سجينة حرمت من أن ينعم عليها بنعمة الإعدام لكى تستريح من هذا الوجه الغليظ. لم تكن تلك هى أول الأحزان، فقد عهدت الحزن قديما منذ أن عرفت أن لها أباً لا يعرف الأبوة، وأما مملوءة بأوعية من اللامبالاة، وأخوات يجهلون أن لهم أختا تمتلك قلبا يزن العالم كله في رقته وعذوبته.

كانت تدعو الله أن يرحمها ويخلصها من هذا العذاب الأسرى المقيت،

ولكنها لا تدرى أنها ستذهب من عذاب لعذاب.. تخلصت من العذاب الأسرى لتلقى عذاب الزوج الذي كان أوقع وأشد.. تمتلك دموعا تملأ خزائن، لم تكن تلك الدموع ضيفا خفيفا، بل كانت هى السجين عند ذاك السجان، تورمت عيناها من فرط البكاء، ونحتت خدودها جراء سريان دموع لا تنضب.

عاشت خمس سنوات من الذل، تحت وطأة هذا الوحش وأقدام الأقدار، حتى جاء اليوم الذي خلصها الله من كل هذا، عندما مات الزوج في حادث سيارة.. حقا كانت تريد أن تتخلص منه، ولكن ليس بتلك الطريقة.. وكزوجة تعرف معنى الإخلاص، حزنت عليه، ليس فقط لأنه زوجها، ولكنه أيضا أب لإبنها الوحيد.

مات الزوج ولم تسترح المسكينة، لأن ضوارٍ أخرى كانت قد ظهرت وكشرت عن أنيابها.. ورثة الزوج وأخوته، عائلة محدثة ترعرعت على الظلم، لم تسلم من ألسنتهم السليطة ولم تسلم أيضا من تحرشاتهم القذرة، ولم يسلم جسدها البض من غمزاتهم الوقحة وألفاظهم البذيئة، علاوة على أنهم سلبوها حقها الشرعى كوريثة لهذا الزوج، ولم يعترفوا بهذا الطفل اليتيم، بل جردوها من كل ما تملك من ذهب ومجوهرات، وتركوها فريسة للكلاب تنهش وتعبث وتأكل.

والدموع لاتتوقف أبدا.. وكأنها برمت عقدا مع الأحزان لا ينتهى إلا بزوالها من على قيد الحياة. لكنها تصارعت مع الحياة ودخلت في منافسة شرسة مع الأقدار. تعرف أن معركتها خاسرة، ولكن من أين تطعم هذا الفم اليتيم؟!

اشتغلت في أعمال كثيرة، لم تترك بابًا إلا وطرقته، عملت غسالة وشغالة وجليسة أطفال، كل هذا من أجل ذاك المسكين الصغير.. عملت في البيوت باليومية ولم تسلم من نظرات أحدهم المتحرشة.. كانت تبكي وتلعن الأيام مُتمنيةً الموت في اليوم مائة مرة، بل ألف ألف مرة، ولكن مازالت لها أنفاس متعبة مع الحياة.

استمر عبث الأقدار أكثر من ذلك، فما إن مرت الأيام والليالي واشتد عود الطفل الصغير- الذي كان طفلًا - حتى تجرأ عليها وعاملها كما لو لم تكن أمه، بل وصلت به الجرأة أن يضربها ويهينها على مسامع الجميع. وكيف لها أن تندهش من ذلك، فهذ هو ابنها، هو نفسه ابن الزوج الغاشم، وكأن جينات الوحشية والهمجية متأصلة في هذه العائلة الغجرية. ماذا لو كانت قد تركته أمام أحد المساجد أو الملاجىء لبرد الليالى وحر البشر؟!.. لكنه قلب الأم، ذاك المصنوع من أرق قماش عرفته البشرية، وكيف يقسو على فلذة كبده؛ حتى لو كانت من أعطن الفلذات وأقذر الأصلاب!

هكذا كانت رحلتها المريرة مع أقوام لا تعرف الرحمة.. بدأت مع أهلها، ثم زوجها، ثم أقارب زوجها، ثم ابنها.. وكأن الدنيا قد خلت من كل معانى الرحمة، ولم يبق هناك إلا قوم جبارين لم تعرفها قواميسهم.

# ليلة شتوية حارة جدًا

أنظر إلى عقارب الساعة الكبيرة المعلقة في الصالون، لأجدها قد جاوزت الثانية صباحًا.. أتلذذ بآخر رشفة من كوب النسكافيه، الذي أعددته في ثلث ساعة كاملة.. سخونته تُلهب أعضائي، وحرارته تشعل نارًا من الذكريات في قلبي. مازلت أنظر إلى تلك العقارب التي تتحرك في ملل.. مرت أيام عمري أمامي وكأنها عربات قطار لا ينتهي، أبتسم عندما أتذكر أيامي الجميلة، بيد أنها ابتسامة باهتة، لا تخرج إلا من شفاه قد تجرعت كؤوسًا من المرارة.

أشعر أن وجهي ينقبض عندما أتذكر تلك الليالي السوداء وما أكثرها وما أظلمها!.. أفقت من هذا برمته بعد برهة ليست بالقصيرة، لأجد نفسي جالسًا على مقعدي الخشبي غير المريح بالمرة في شرفة منزلي المتواضع في حي الأزبكية. الأزبكية لمن يعرفها جيدًا منطقة سكنية، تجمع ما بين الرقي والوسطية، كونها مزيج من مختلف طبقات المجتمع.

محام لدى محكمة النقض، تزوجت منذ ثلاث سنوات ليس أكثر، كنت أحب زوجتي التي لم أعرفها قبل الزواج إلا بأسبوعين، حتى حدث الفراق بدون مقدمات. لم تخلف السنوات الثلاث عن أبناء، أعيش وحيدًا في شقة رحبة. أعيش وحيدًا في صُحبة كتبي ومراجعي وحوض غسيل الأطباق. يومي يبدأ كأيّ يوم كشخص عادي في أسرة مصرية شبه مستقرة، أصحو

من النوم في تمام الثامنة، آخذ حمامًا ساخنًا في عز الشتاء، تُنعشني المياه، ويغمرني الدفء المؤقت، أجهز إفطارًا بسيطًا، ويبدأ نهاري بقراءة سريعة لكُبرى الصحف والمجلات مع متابعة إذاعية وأخبار مرئية.

أدخل صومعتي لأعتزل الحياة بين الكُتب التي لا تنتهي، هذا هو إدماني الذي لا يُعالج أو يُقاوم.. عادة لم أفكر يومًا في الإقلاع عنها.

تأتي الساعة الواحدة ظهرًا، فأفكر في الغداء، والذي لا يخلو غالبًا من سلطات أعشقها.. أعشق وجبة السمك بجميع طُرقها، ولكني أفضل السمك البوري المشوي عن أيّ منها.

"تغدى وتمدى".. كما يقول المثل، لابد من ساعة أو ساعتين على الأقل في وقت القيلولة، أصحو من قيلولتي الممتعة المسكرة في تمام الخامسة بعد العصر، أبحث عن فنجان القهوة الزيادة الذي أشتهيه، أرشفه متلذذا في غرفة مكتبي، لأُكمل قراءة كتابٍ لم أنتهِ منه بعد.

ثم يدخل الليل البهيم، وتأتي الوحشة التي تعودت عليها وألفتها كضيف ثقيل لا يستأذن بالانصراف أبدًا، وأنا مازالت في غرفة مكتبي أشعل سيجارتي، وأشعل معها الأضواء السحرية الخاصة. أنا لا أتعشى أبدًا، ولكني أُحلي بالروايات والأشعار وأعاشر القصائد الرومانسية ليلا.

هذا هو يومي التقليدي الذي لا أمله ولا أكره روتينيته. لا أخرج من شقتي إلا في الضرورة القصوى.. لا أخرج إلا إذا كانت هناك قضايا ومرافعات وأشغال محاكمات. أخرج مرة واحدة أسبوعيًا لأشتري ما يلزمني من طعام وشراب وعشيقات من مختلف المكتبات ودور النشر والتوزيع؛ أقصد الكتب.

كُنت مستغرقًا في قراءة رواية عبث الأقدار، أشعر بالدفء الداخلي بين تلك السطور والمعاني، عِلمًا بأن الجو كان في غاية البرودة. الأفكار تتساقط بغزارة على زجاج الشرفة، يغمرني إحساس بالنشوة والرغبة في مواصلة القراءة ومُلاحقة الأفكار التي لا تنتهي مع كل كلمة في الرواية، مرتديا معطفًا من الصوف الثقيل، الذي يمنحني درجة عاليةً جدًا من الدفء والحرارة، مع رباطة العُنق الغليظة.. والأمطار تتزايد تكاد تكسر زجاج الشرفة، كأنها عقاب سماوي أو غضب إلهي أو صيحة لها معنى ما!.. لكني لم أكترث بها، لأنني أعلم جيدًا كم هي متانة هذه النوعية من الزجاج.

لم يُفقني من شرودي إلا تلك الصرخة.. وكأنها طرقة من مطرقة لا تعرف اللين على قلب لا يحتمل لمسة من ورقة حرير!.. صرخة استغاثة، انتبهت لها بعد بُرهة.. تُرى أهي حقيقة أم أن أفكار الرواية قد جعلتني أعيشُها على أرض الواقع؟! أنا أصدق ذلك تماما، وأصل إليه غالبًا مع الكبير محفوظ؛ لكن مهلًا، هي صرخة حقيقية تُعادل في قوتها سلاحًا آليًا يحمل طلقات لا تعرف الصمت.. اتجهت بدوري إلى مصدرها، كي أتحسسها فينتهي شكي وتذهب حيرتي. إنها من جهة النافذة التي تطل على الشارع الرئيسي. أنظر بصعوبة من خلف النافذة، فأرى خيالًا لا أستطيع أن أميزه. أشباحًا تتحرك، تتشاجر، تتنازع.. ما هذه الليلة!!

الصرخة تحمل صوتًا أنثويًا سهل تمييزه، ولكنه صوت مبحوح مُعدم مُنهك.. عرفت بعد برهة أنها صرخة استغاثة في هذا الليل الكالح، قاسي الملامح.

ماذا عساي أن أفعل؟.. لم أشعر إلا بأقدامي تنزلق مرتجفة على سلالم العمارة التي أسكنها، فأجد نفسي في الشارع بين الأمطار وقسوة البرد. ما

إن اقتربت رويدًا رويدا، حتى حسرني فحيح السيارة التي انطلقت بسرعة جنونية كادت تصدمني. أنظر في تمعن إلى الجسد الذي أمامي، فأرى معطفًا أسودًا ينساب من أعلاه شعرًا حريريًا أشد اسوادًا.. يبدو أن هذا الجسد يبكي بكاءً هستيريًا من هول ما رأى. لم أشعر إلا بلساني يقول في توجس: أنت.. ما الأمر؟ أكل شيء على ما يرام؟.. لم يأتِ الرد، وجاءت الدموع تنظر إليّ في خدر.. ثم: لا شيء..

ارتحت لسماع هذا الصوت الأنثوي الحزين فتابعت: ولكنك كنتِ تصرخين ويبدو.....

قاطعتني قائلة: قلت لا شيء.. لا عليك.

أسكتتني الأمطار التي تتساقط في غزارة، كأن نهرًا من السماء قد فاض، وجاء فيضانه ليغرق كل شيء حي. أشعر أنها تتألم من البرد، شفتاها تتحرك في سرعة، تقشعر ملامحها، وكأنها تغرق، فقلت بكل جرأة منحتني إياها تلك الظروف المناخية التي لا تنتظر التردد: من الواضح أن الليلة قاسية، غزيرة الأمطار؛ ما رأيك في أن تصعدي إلى منزلي حتى تهدئي وتهدأ تلك الأمطار؟!

فأجابتني في سرعة غير متوقعة: حسنا

وجدت نفسي أجلس وجهًا لوجه مع هذا الوجه الصافي، والجسد الأنثوي اللدن المغطى بالكامل ماعدا اليدين والوجه، بيد أنه يحمل طابعًا جذابًا لا يخلو من الرقة وبراعة التصميم، وأعددت فنجانًا من القهوة لضيفتي غير المتوقعة، تركتها حتى تهدأ تمامًا.

ثم بادرت بقطع حبال الصمت لسد حاجة الفضول التي لا تهدأ: ما حكايتك؟ وما حكاية السيارة التي أنزلتكِ وانطلقت مسرعة؟!! فقالت في

أرق واضح: أنا التي طلبت أن أنزل هنا

- لماذا؟!

صمتت برهة، حتى تقاوم دموعها التي كانت في غزارة الأمطار المتساقطة على الأخضر واليابس، ثم قالت: هذا هو خطيبي، ذاك الذي حاربت أهلي وأصدقائي وكل من أعرف من أجله، خطيبي الذي طعنني قبل أن يُحبني كما يجب أن يكون.

أنا يا أستاذ فتاة عادية، كان حلمي الأول والأخير أن أجد الشخص الذي يجعلني أعشق التراب الذي يسير عليه.. كنت على ثقة تامة من أنني قادرة على إسعاد هذا الذي أحبه، أعرف نفسي وأعلم كم هي مقدرتي على إبهاج رفيق عُمري وحبيب أيامي، حتى جاء اليوم الذي أحببت فيه كريم، ذاك الذي لم يكن كريمًا معي بالمرة، كان جافًا قاسيًا، أوهمني أنه يُحبني، خدعني بكلامه المعسول. كنت أقول لنفسي مرارًا أنه يحبني وقسوته هذه هي منتهى الحب، لم أكن أتصور أن يأتي اليوم لأكره فيه كل شئ اسمه حب، حتى رأيت بعيني، بل جربت بنفسي أن أعيش ذات الإحساس.

مرت الأيام، أحاول أن أغير من طباعه الجافة، لكنه لا يستجيب، حتى فاض الكيل واضطررت أن أصارحه وأواجهه، خوفًا مني على قلبي الذي لا يحتمل أن يكون لُعبة في يد رجل لا يعرف كيف يحب امرأة تريد أن تجعله مَلكًا. حتى جاءت تلك الليلة التي نحن فيها الآن، تواعدتُ معه أن أراه الليلة، وفي نيتي أن أواجهه دون أن أجرح كبريائه. وبعد سهرتنا الكئيبة في أحد الكازينوهات، وفي طريق عودتنا إلى المنزل، قررت أن أقتل الصمت بكلماتي، فقلت له في توسل: كريم، هل تحبني من صميم قلبك؟!

فقال بجفائه المعتاد: لماذا تسألين هذا السؤال؟! أنتِ خطيبتي، فقلت في تمعن: أهذا كل شيء؟! فانفجر زاعقا: أنتِ تريدين حُبًا لم يعد موجودًا، متى ستفيقين من تلك الأوهام التي تعيشينها؟! تريدين حُب الشاطر حسن والأميرة الحسناء، أفيقي وانزلي على أرض الواقع قبل أن تقعي فلا تجدين تلك الأرض لتسقطي عليها.. فانهرت باكية: مهلًا يا كريم، ما كل هذه الكآبة، أهذا لمجرد أنني سألتك هل تحبني من صميم قلبك، ألهذا الحد أخطأت أو تجاوزت حدودي؟!

صمت، فقلت في غضب عارم: أنزلني هُنا أرجوك، فما إن نطقت بتلك الكلمة حتى نفذ طلبي على الفور.. تصور يا أستاذ يُنزلني في هذه المنطقة التي لا أعرفها في هذه الليلة!!

وانسابت بحار من الدموع التي لم تتوقف منذ البداية، فعصرت عيني مندهشًا عندما رأيت دمعة كبيرة تفر من تجويفها لتسقط من الأرض، كرد فعل طبيعي من قلب يتوجع ويتألم لتألم آخر، تماسكت وقلت لها في مواساة: أرجوكِ، تماسكي، لَا عليكِ، أنت لا تعرفين أين الخير.. أشعر أنك في غاية التعب، أريد أن أوصلك إلى بيتك الآن، ولكنك ترين - كما أرى - فالطقس غير مناسب، واضح أن الأمطار لن تنتهي إلا في الصباح، سأحضر لك غطاءً ثقيلًا، ثم خرجت وتركتها. عُدت من غُرفتي وفي يدي بطانية ثقيلة، لأجدها قد استسلمت بالفعل إلى النوم المرهق، تمددت على أريكة غُرفة المكتب، اقتربت منها في حذر ووضعتها عليها، ثم خرجت في هدوء أفكر فيما حدث. منعني التفكير من أن أذهب إلى غُرفة نومي لأنام ولو لسويعات قليلة، فلم أشعر بنفسي إلا عندما أفقت من غفوتي، لأجدني ممددًا على

مقعد في غرفة المعيشة. لقد نمت جالسا، نظرتُ إلى ساعة يدي، فوجدتها قد قاربت الثامنة صباحًا، فاتجهت مسرعًا إلى غُرفة المكتب، وطرقت الباب ثلاث مرات، لكن لم يفتح أحد، ففتحته في تردد فلم أجدها.

تُرى أين ذهبت؟! لا أدري، لا أشعر بحركتها في المنزل بأكمله، فتحت نافذة الغرفة فلم أجدها في الشارع، أين ذهبت؟! طار عقلي وجُن جنوني، وبعدما تعبت من التفكير، جلست خلف مكتبي لأستريح، فوجدت ورقة صغيرة مكتوب فيها كلمتين بخط مرتعش، شُكرًا لك.. ذهبت دون أن أعرف حتى اسمها!!

# عين واحدة.. تكفى

فقد احدى نوريه في الحرب..

هو، في السبعين من عمره، يجلس بين أحفاده يستلذ بالدفء أمام مدفئة الشتاء المنقذة من هذا البرد القارص، خشونة معالمه لم تمنع قلبه من أن يفيض رقة وحنان، وجمود أعصابه لم يحرم مشاعره من الحلم، تنساب من عينه اليمنى أضواء سرمدية تشع إحساسا بالرضا التام، فقد عينه اليسرى، فكان عزاءه أنها ذهبت فداء للأرض والعرض.

جلس أحفاده الخمسة في شكل نصف دائرى، يلتفون حوله، جدهم، الذي رأى من الدنيا الكثير وعلمته التجارب ما هو أكثر، يحكى لهم دوما عن بطولات الحرب، وكيف كان الصبر الذي صنع النصر، وكيف كانت الإرادة التي صنعت العبور والريادة، يبث في قلوبهم الأمل بين الحين والآخر، كلما وجد أن جرعة الكفاح والهمة قد قلت في أحدهم جمعهم أمامه في ليالى الشتاء، أمام المدفئة، فتندفع الأحاديث وترجع الذكريات التي لا تنتهى.

كان يشعر بالفخر دوما، لأنه كان أحد أفراد القوات المسلحة في تلك الملحمة العظيمة، وكيف أن عينه لم تكن عزيزة على الوطن، بل كانت أقل

القليل الذي يقدمه له. يرى الدنيا بعين واحدة، عدسة واحدة، شعاع ضوئى واحد.. العين التي يرى بها الخير هى ذاتها التي يرى بها الشر.

يرى بعينه كيف انتشرت الفوضى والفساد في شتى المؤسسات، يرى كيف ساد الانحلال الأخلاقى والتربوى في المجتمعات العربية، وكيف لم يعد هناك قيمة تكرم ويحتذى بها، يرى شتى أنواع الابتذال في الفكر والفن والأدب، بل وصل التهاون والتطاول إلى الدين، إلى صلب العقيدة التي لا يأمن الإنسان غدر الزمان إلا بحبال نجاتها.. يرى فساد وقود المجتمع وذخيرته، الشباب، فيتحسر ويعصر قلبه الألم، كيف أن هذا الوقود فاسد، فإن كان هذا حاله فمن أين وبمن تأتى النهضة؟! يرى بها تلوث المناخ السياسى، فتلتهب بدورها وتمرض.. كان يرى كيف أن قادة الأمة يضعون خدودهم مطية لأرخص الناس بكل رضا ونفس مطمئنة، كان يرى بها كيف وصل وضعنا الاقتصادى الذي كان من أفضل الأوضاع الاقتصادية في سالف العصر.. كان يرى بها مدى الانحطاط الثقافى الذي وصلنا إليه، يرى الموجة الإعلامية الهمجية التي لا رقيب عليها ولا مراقب لها.. يرى بيوتا قد تفككت، وتقاليد تربوية قد ذبلت، ومحارم قد انتهكت، ونخوة قد ذهبت، وأواصر وأرحام قد ذابت، وهمم قد ضعفت، وعزة قد ماتت وأخذ فيها العزاء!!

كان يرى كل ذلك فيغلق عينيه بقوة، ويقول في قرارة نفسه:

" كم تمنيت أن أفقد كلتي العينين قبل أن أرى ما أراه الآن. أضحى البصر لى نقمة ومشقة.. أجهد عينى الأرملة فيما ارتاحت منه عينى

المرحومة.. آه لو كنت فقد الاثنتين فأعيش على ذكريات ضوئية قديمة "

لكن مهلا، كانت ذات العين ترى أيضا الوجه الآخر للأشياء، ترى كيف هو التقدم العلمى والتكنولوجى الذي اجتاح العالم فصنع منه قرية صغيرة مترابطة الأوصال، فأنت تستطيع أن ترى شلالات سيبيريا دون أن تذهب إلى هناك، أو أن ترى كم يبلغ ارتفاع غابات السافانا دون أن تقف هناك، أو أن تشاهد ذوبان الجليد في القطب الشمالى دون أن تكون ضمن الحضور هناك، تستطيع أن تحصل على أي معلومة من أي نوع بضغطات بسيطة على جهاز اللاب توب مثلا، تستطيع أن تتواصل مع العالم كله عن طريق جهاز صغير لا يتعدى وزنه البضع الجرامات، تستطيع أن ترى الصورة ثلاثية الأبعاد ورباعية أيضا، تستطيع أن ترى التجسد الحقيقى بواسطة الفوتوشوب والأنيميشن animation، أنت تستطيع أن تعيش في وحدة متكاملة تملك كل مقومات الحياة المدللة السلسة. كان يتابع باهتمام التقدم المعمارى والإنشائى، يرى الكبارى المعلقة فوق الماء فيتعجب، وتلك الأنفاق الطويلة تحت الماء فيندهش، ينظر إلى ناطحات السحاب التي تشق عنان السماء فينفرج فوه.

رأى الحضور الجماهيرى الرهيب لسائر طوائف المجتمع يتزاحمون في ميدان التحرير والميادين الكبرى من أجل قضية واحدة، ومطلب واحد، وإيمان عميق متأصل بهذا الهدف الذي لا يزحزحه شيء.. كانت تبكى هذه العين، عندما يرى ويسمع هذه الصيحات والصرخات المطالبة بالتغيير

والحرية، بل واحترام الإنسان والإنسانية.

رأى ذلك كله فحمد الله أن له عين ترى مثل هذا الجمال فكان يقول:

" آه لو تعودي يا عينى المرحومة لتري وتتمتعي مع عيني الأرملة "

العين التي ترى الخير هى ذاتها التي ترى الشر.. عين واحدة تكفى أن ترى وجهي الحياة، أنت أيضا تستطيع بعين واحدة، أن تغض البصر عن المساؤى لترى المحاسن، وتقول بكل ايمان وثقة: تبارك الخالق فيما خلق.

# شهادة ميلاد

كنتُ طبيبًا حديث التخرج، عملتُ في إحدى الوحدات الصحية التابعة لمديرية الصحة، أقوم بواجباتي كاملةً وأؤدي عملي على أكمل وجه. كانت وحدتي في قرية متوسطة الحال، حيث الناس بُسطاء، لكنهم كثيرون.. كانت من كُبرى القُرى في المحافظة، وكنت مديرًا للوحدة، أجد لذتي في البحث عن الجديد في الحياة، أتعجب من حياة الفلاحين البُسطاء وكيف يصبرون على الحياة، بل ويتمتعون بكل لحظة فيها.

بالنسبة لي مغامرة جديدة، متيقن من أن تلك الفترة ستكون من أزهى فترات حياتي وأخصبها. كنت شَغفًا بسماع الدعوات المباركة على ألسنة العجائز، كم كانت تُلهب أذناي، كنت أشعر وبحق أنني المنقذ لأهالي القرية الطيبين. يستشيرونني في أمور دينهم ودنياهم، بل كانوا يعتبرونني كل شئ بالنسبة لهم. أجيب على قدر علمي المحدود، بالإضافة إلى الاستشارات الطبية المختلفة التي لا تنتهي. كانت لهم نظراتهم السياسية وتصوراتهم المتباينة للأحداث، يُقيّمون الأشخاص بطريقة سلسة، همهم الأكبر وشغلهم الشاغل رزق العيال. كانوا يحلمون بالقليل، وهذه قناعتهم.

تفاعلت شتى طوائف الشعب مع الثورة، كلٌ في نطاق عمله وعلمه ووضعه الاجتماعي والاقتصادي والثقافي. جاءت ثورة التغيير الإلهي لتضع حدًا لظُلم السنين المتوارث، وكان لمجيئها وقوع تلك الحادثة الطريفة.

ولدت طفلة في يوم الرابع من فبراير في أحد بيوت القرية، لأب وأم بسيطين، ففرحا بها كثيرًا كونها أول مولودة وقد رُزقا بها بعد عناء ومشقة. وعندما استعادت الأم عافيتها من الولادة، أتت لقسم المواليد بالوحدة لقيدها في السجل، ومن هنا بدأت المشكلة.

أرادت الأم أن تُقيد طفلتها لتصبح من مواليد يوم ٢٥ يناير، اعتزازًا وتيمنًا بالحدث الكبير، لكن الموظف المختص أبى ذلك، مُوضحًا لها أن هذا لا يجوز قانونًا، وأن تلك مخالفة جسيمة من الممكن أن يفصل بسببها من عمله. أصرت المرأة على طلبها وارتفع صوتها فَعَلا صوت الرجل أيضًا، ونشب تشاحنًا كبيرًا وصل إلى التطاول باللسان، وكان على وشك أن يكون بالأيدي. هنا تدخلت بدوري كطبيب الوحدة الأول ومديرها المسؤول عن كل صغيرة وكبيرة فيها، فما أن رآني الموظف حتى قال بصوت جهوري: ها قد جاء الدكتور حسن..

فقلت في جدية: ما الأمر أستاذ فهمي.. فقال في حدة: هذه السيدة تُريد كذا وكذا.

وبعدما سمعت القصة كاملة، قلت للسيدة في ود: أستأذنك يا سيدتي أن تتفضلي في مكتبي، فجاءت ورائي إلى المكتب وأجلستها أمامي، ثم قلت متبسطًا: سيدتي أعلم أنك تريدين أن تقيدي طفلتك في مواليد ٢٥ يناير، أعي ذلك جيدًا، لكن هذا لا يجوز كما أوضح لكِ الموظفُ المختص.. "القيد في مكان وزمان الولادة" كما ينص القانون، وقد أنجبتِ طفلتك في الرابع من فبراير إذن فبأي حق يتم قيدها في يوم الخامس والعشرين من يناير؟

فسكتت المرأة لبُرهة لتستجمع قواها، ثم قالت بدموع حائرة: ولكني

يا دكتور لن أقيدها إلا في هذا اليوم تحديدا، فهززت رأسي نفيًا وأسفًا ولم أنطق بكلمة..

سحبت المرأة نفسها ومشت من أمامي، وهي في قمة الغيظ والانكسار. ومرت الأيام ونسيت الواقعة ولكنها لم تنسني. كنت مُعجبًا جدًا بحرص المرأة على تسجيل طفلتها في يوم ٢٥ يناير، هكذا أيقنت أن للثورة قدرها في النفوس.

مرت الأيام مسرعة، ثم جاءت الذكرى السنوية الأولى للثورة. كنت في هذا اليوم أجلس في مكتبي في الوحدة لإنهاء بعض الأعمال المُتأخرة، وكان باب حجرتي مُغلقا، فجاءت طرقة خفيفة عليه، فقلتُ في ترقب: تفضل..

فدخلت السيدة التي كنت قد نسيتها بالفعل، ثم قالت: أهلًا بك يا دكتور..

فقلت في جدية: أهلا وسهلا..

عندما أيقنت أنني لا أتذكرها قالت في ابتسامة رقيقة: ألا تذكرني يا دكتور حسن؟

فقلت محاولًا التذكر: لا ، معذرة..

فقالت بثقة: لقد جئت لك من عام مضى لأقيد طفلتي في يوم ٢٥ يناير.

وقبل أن تُكمل كلامها قلت مسرعا: نعم، لقد تذكرتك، كيف حالك، وحال طفلتك؟

فقالت: الحمدلله

فقلتُ: بالطبع قمتِ بتسجيلها

فقالت في ثقة: لا، ليس بعد

فقلتُ في دهشة: لماذا، ثم كيف ذلك؟!!

فقالت في عناد لم أعرف من أين أتت به: لن أسجلها إلا في يوم ٢٥

يناير، ولو فقدت سنة كاملة من عمرها، ولن أتنازل عن هذه الرغبة حتى إن لم تقيد إلى الأبد، وقد أتيت اليوم من أجل أن تحقق لي أمنيتي الوحيدة.

فقلت مندهشًا: لم أرَ في حياتي مثل ذلك من قبل، أإلى هذا الحد يصل بك العناد؟!

أتدرين أنك بذلك قد حرمتِ طفلتك من تطعيمات سنة كاملة؟ من أين أتيتِ بتلك الرأس اليابسة المتحجرة؟!

# رائحة الشوام

ياعزيزى، كما أن للشواء رائحة، فللشوام رائحة..

كانت تلك هى كلمات صديقى، عندما كنا نجلس في انتظار أصنافنا من الطعام في أحد مطاعم وسط البلد الشهيرة. استوقفتنى، فقلت له: وماذا تقصد؟

قال: إن تلك التي تحسرت عليها وحزنت لحالها هى أصل العروبة، الذي ذل على يد حاكم باطش، لولا عبث المقادير وتقلبات الدهر ما جاءت إلى هنا تتسول لقمة العيش. إنه لعار كبير أن نرى الأصول العريقة تشحذ، تمد يدها للئيم أو حقير. ألا ترى معى أن الشوام كثروا في بلدنا تقهقرا من ويل حياتهم في بلادهم؟

لم يمهلنى الرد حتى قال:

ياعزيزى، هى ضريبة مدفوعة الأجر، ضحايا تسقط حفظا لماء تلك الثورة، أراض تنضح بالدماء فداء للحياة الكريمة المنشودة، نساء تغتصب، زوجات تترمل، أطفال تقتل، حضارة تولول، حناجر تصرخ، وعالم أصم، لا يسمع إلا صدى صوت القوى.

لم استطع النطق وسط هذا السيل من الحقائق والمشاعر، لم يمهلنى لحظة للتفكير، حتى أشار للفتاة الشقراء قائلا لها:

تعالى ياصغيرتى.

ترددت كثيرا، نظرت إلى الأرض بوداعة، تاركة ضفائرها الذهبية

تلمع في ضوء الشمس، كانت ترتدى حلة برتقالية مزركشة، يعلو جبينها مسحة من عز بائد، زواله لم يمنعه من التواجد على محياها.

جاءت نحونا بخطوات متكاسلة، وعيون مترقبة كعيوان المها، بياضها بياض وسوادها سواد، أنف دقيق وشفاه دموية يعتريها بعض البهتان جراء سوء التغذية. كانت نحيلة، خفيفة، ربما ظننت أن رياحا عاتية ربما ترمى بها بعيدا.

قال لها: ما اسمك ياجميلتى؟

فقالت بصوت خفيض لا يكاد يسمع: غالية

فقال لها باسما: ما أحلاك وما أغلاك!

ربت على كتفها وضفائرها المسترسلة، فأحست بالأمان، فحكت لنا الحكاية كاملة..

أنا ياسيدى فتاة سورية، جئت من حلب الشام، مع أمى وأخى الرضيع، اقتحمت بيوتنا وهدمت، وجهت البنادق إلى صدورنا، دهستنا دباباتهم وعبث مرضاهم بأجسادنا. صرنا لقمة سائغة تلوكها أفواههم وبطونهم العفنة.. قتل أبى برصاص الغدر أمام أعيننا المرتعدة، ففررنا إلى مصر تاركين وراءنا أحبابا وأقاربا وشمسا شامية غابت في بحور الدم، ودفئا خدر ببرودة الرصاص.

قال لها متأثرا: وأين والدتك؟

فقالت بأسى: في الخارج، منعتها عزة نفسها التسول.

فقال: وأنت، ألم يمنعك حياؤك التسول؟!

فقالت بثقة: ومن يطعم أخى الرضيع؟!

صراحتها المرة أشعرتنى بدوي الصفعة على وجهى.. فتاة في عمر

الزهور، تعطى لنا دروسا في العزة والكرامة، لتنتشلنا من هواننا وقيلة حيلتنا ورعونتنا.. نحتسى القهوة أمام المدافئ في صحبة فيلم السهرة أو كتاب أنيق في حضور امرأة شهية وحساء ساخن وسكينة أسرية، وهم يعذبون ويشردون ويرتعدون.. تضمر بطونهم، تنحل أجسادهم، يضرب البرد عظامهم ويفكك الهم والغم أوصالهم..

هوانا ياعرب!!

# جميلـــة

اسمها جميلة..

وهى جميلة بحق، حورية تتلألأ في بحر الجمال الأخاذ، ولؤلؤة تتراقص وتتهادى بين أمواج لا تعرف إلا السحر، وبقعة من الياقوت والزمرد تملأ فراغا لا بأس به من الفتنة، لكن الابتسامة الرقيقة يغلفها بؤس السنين وعبث المقادير. عينان عميقتان تغرقان من ينظر ويتمعن، وحاجبان عاليان حادان يقطعان من يتأمل، وشفتان تفاحتان تبهجان من يتفحص ويتبين، رأس فتانة تتدلى على جسد أكثر فتنة، هكذا يجتمع الشباب والجمال فتكون الأنوثة الطاغية المدوية.

فى الخامسة والعشرين من عمرها، تحمل هما وغما لا يحمله شيخ طاعن ينتظر رحمة من ملك الموت بفارغ الصبر. مذ نعومة أظافرها وهى تصارع الحياة فتصرعها، وتقاوم وتصرعها، فتقاوم. نشأت في أسرة بسيطة، لأب وأم فقيرين، لها أخ يكبرها بسبع سنوات؛ ولكنها أرجل منه بكثير.

ذاقت أمها مر العذاب على يد زوج جاحد، يبيع نفسه من أجل سيجارة هنا ورصة هناك، وسهرة هنا ولهو هناك. الأم هى المتكفلة بمتطلبات الأسرة، التي تضم جميلة وأختين أصغر منها سنا، وأخ عاجز عن أن يصبح رجلا بمعنى الكلمة. ومع إهانات الأم المتكررة من قبل هذا الأب القاسى، طعنت في السن واستسلمت للفراش، داعية الله أن يقرب أجلها لتستريح

من هذا العناء الذي طال لأكثر من عشرين عاما.

المصدر الرئيسى لدخل تلك الأسرة المبتئسة هو دكان خضار صغير يقع على ناصية الحارة، كانت الأم المسكينة قد قامت ببيع مصوغاتها بأبخس الاسعار لكى تشتريه، وكيف لها أن تطعم تلك الأفواه وهناك زوج غارق في الملذات؟! ماذا ستفعل إن هى استسلمت وتقاعست ولم تفكر في مثل هذه الفكرة، إذا لماتت تلك الأفواه جوعا.

ومع شغل الدكان، تحسنت الحالة الاقتصادية للأسرة، لكن بصورة مؤقتة، فيما يقال بالمثل الدارج" اللى جى على قد اللى رايح" ، لكن الأب، الذي لا يضع في عينه حصوة ملح، لم يترك الزوجة المسكينة في حالها، فبدلا من أن يشكرها لأنها تصرف عليه وعلى أولاده، تمادى في إهانتها وتمادى في طلباته ونزواته التي لا تنتهى، كأنه عذاب ربانى وابتلاء شديد لا يقوى عليهما بشر. كان يأخذ كل إيراد الدكان بالقوة، على استعداد أن يفعل أي شئ في سبيل أن يحصل على ما يريد من المال.. كان يسرق زوجته، يبيع أي شئ يجده في طريقه من أجل الكيف.

وفى يوم من الأيام، كانت الأم المتوجعة عائدة من الدكان في غاية التعب فما إن دخلت الشقة حتى قابلها ذاك الهمجى بخشونة تتناسب حتما مع تصرفاته فقال:

- عايز فلوس، إدينى إيراد النهارده.

فما إن سمعت تلك العبارة حتى قالت في غيظ:

- مش مكفيك اللى أخدته منى الصبح؟!

فقال في حدة:

- خلصته، ودلوقتى عايز كمان.

فقالت في ضيق:

- أجيبلك فلوس منين؟ هو حد قالك إن أنا شغالة في بنك؟!

فقال في لا مبالاة:

- ماليش فيه، دلوقتى عايز فلوس وإلا.....

فقاطعته صائحة:

- وإلا إيه، هتضربنى؟!! مش فارقة، أنا أصلا فتعودت على الإهانة من يوم ما عرفتك.

فاندفع نحوها كالثور الهائج، وأمسك معصمها في عنف ودفعها بيده الغليظة، حتى سقطت مغشيا عليها من أثر الاصطدام في الأرض، وأخذ ما في محفظتها من نقود، ثم ألقاها في وجهها فارغة، فانخرطت الزوجة البائسة في بكاء هيسترى، وعلى نواحها ودعائها لأن يخلصها الله مما فيه. واستجاب العلى القدير لدعائها وأراحها للأبد، وترك على ظهر الدنيا رجلا لا يعرف الرجولة الا اسما وشكلا.

وجاء الدورعلى الفتاة المسكينة (جميلة)، فمنذ توفيت أمها على أثر سكتة قلبية مفاجئة، ولكنها متوقعة، حتى حملت هم كل شئ في هذه الأسرة البائسة. حملت هم أب لم يحتمل مسئولية قط، وهم أخ لم يفكر أن يلوث

يده الناعمة في عمل شريف من قبل، وهم أختين ذابلتين تنتظران الزواج، وفوق كل هذا هم التفكير في لقمة العيش صعبة المنال.

هكذا وجدت نفسها وجها لوجه مع طواحين الحياة التي تقطع وتفرم.. تولت إدارة دكان الخضار، تصحو من نومها القلق في تمام الفجر، تجهز الإفطار لأبيها وأخوتها تتركه على المنضدة وتنزل من البيت، تستأجر سيارة نص نقل وتذهب بها الى سوق الجملة العمومى في المنطقة، تشترى ما يلزمها من بضاعة بالتقسيط أو على النوتة وترجع إلى الدكان قبل الظهيرة، وتفرش بضاعتها وتبدأ عملية البيع ومجادلة الزبائن وتحمل سفاهة الشباب، ثم ترجع إلى البيت قبيل العصر، فتجهز الغداء للأفواه المنتظرة، وتقوم بتوضيب البيت وترتيبه، حتى يسقطها النوم على الفراش أو على كنبة أو كرسى في الصالة. هكذا كانت تعيش في تلك الدوامة، حتى سرقت منها أنضر سنوات عمرها. استطاعت في سنوات قليلة أن تسدد ديونها في الأسواق، وشيكاتها عند كبار التجار.. استطاعت أن تسد احتياجات أبيها، وتكف أذاه عن الأختين الصغيرتين، كما استطاعت أن تدفع قيمة وصولات الأمانة التي كانت قد وقع عليها أخوها الطائش لأحد المبتزين جراء تورطه في مشروع فاشل.. كما استطاعت أيضا أن تزوج أختيها الصغيرتين وتجهزهما كما لو كانت أمهما على قيد الحياة وأكثر. فعلت ما فعلت فنست أنها فتاة مثلها، أنثى يلزمها رجل، ليعوضها عن كل شيء، بخلت على نفسها ومتعتها واقتصت من احتياجاتها في سبيل إسعاد غيرها، حرمت نفسها من أن تنعم الإحساس الأنوثى الطاغى فيها من أجل أن تحافظ على استقرار أسرة كانت على

حافة التشرد والضياع. كان من السهل عليها بكلمة واحدة منها أو مجرد ايماءة من رأسها أن تجر وراءها أعتى الأشناب، ولكنها نست وتناست أنها أنثى.

نسيت أنها بركان أنوثة ينتظر من يثيره لينفجر، بل حرمت على نفسها أن تحلم كباقى الفتيات بليلة العرس، هذا حظها من الدنيا وقد رضت به. يكفيها أنها تكون في غاية الرضا عندما تشعر أنها صنعت شيئا ليتيمتين وسترتهما في زمن يصعب فيه ستر فتاة. لم يزعجها قط كونها تقف على أعتاب الثلاثين، وزهرة شبابها تذبل يوما بعد يوم، لأنها رفضت أن ترتوى ويموت غيرها من الظمأ.

# ذاك الصوت

الجو هادئ، كسكينة الموت لا يزعجها شيء، كل ما هنالك هو ذلك الهواء الليلى المنعش، وسحابة صافية تحلق في الأفق، أوراق تتحرك في سمر وسرور، وعباءة الليل التي كانت زاهية منيرة، مع أنها في الأصل سوداء قاتمة. ألقا يحيط بالمكان فيجعل منه واديا للسحر، فقط كل ما يعكر هذا الصفو هو نقيق صغار الضفادع طلبا للطعام، ونقيق كبارها كذلك توقا للتزاوج.

طاااااااااااااااااااااخ!!

صوت طلق نارى ينبعث من هذا المكان الكائن بين أحضان تلك الأشجار المورقة، ووهج ينبعث منها، فيحدث ومضة سريعة فينير المكان المظلم الهادئ.. أقصد الذي كان منذ قليل كذلك!

الرعب الذي داهم الضيوف في تلك السهرة كان كفيلا بأن ينشئ موجة من العجز والضعف والترقب، أرواح سحبت، وقلوب توقفت للحظات عن عملها، وشهقات علت تبعتها زفرات قوية مستضعفة.

كان لابد لى أن أذهب حيث مصدر الصوت؛ ليس فقط لأعرف ما الأمر، لكن أيضا لأعيد الابتسامة التي هربت مع دماء الوجه منذ قليل. لا أريد أن أفسد تلك الليلة الحالمة، كونها ليلة رأس السنة.

ظهرت أمام عينى كل مشاهد الرعب والإثارة في السينما الإمريكية، فان ديزل وذا روك وغيرها ، يبدو أننى مقدم على مشهد حقيقى ليس فيه كاميرا ولا استوديو ولا مونتاج ولا كومبارس ولا خدع.

دلفت إلى تلك الحديقة الساكنة إلا من ذاك الصوت الذي كان.. مشيت بين أوراقها التي ربما تتكلم وأنا لا أفهم لغتها بكل تأكيد. الصمت المطبق يحاوطنى، وأنا أتعمق واتعمق أكثر وأكثر، تبا! لقد اختفى صوت الضفادع الملحة!

كانت خطواتى مترقبة حذرة، لم أشعر أننى بعدت قرابة الكيلو متر عن ضيوفى، فلم أر شيئا ملفتا للانتباه، اللهم بعض الحشرات الشتوية المعتادة.

رجعت مسرعا حيث ضيوفى.. عدت بخفى حنين، لم أعثر على نتيجة مرضية. ولكنى في طريق عودتى، فكرت أكثر وقلت إن الطلقة التي خرجت كانت من بندقية من نوعية كذا، طلقة كاشفة، أي أنها كان لها هدف معين، ترى ماهو؟!!

لم أنشغل بالأمر كثيرا، وتشاغلت بحفلة السمر الضيقة في تلك الليلة التي لا مثيل لها، وعادت البسمة وعلت الضحكات، وتناسينا الأمر جميعا. وعندما قاربت الحفلة على الانتهاء، نظرت أمامى لأجد خفير مزرعتى واقفا، حاملا بندقيته. وقبل أن أسأل عن أي شيء، قال لى بلهجة الذي سدد لى معروفا يريد أن يجازى عليه:

- ياسعادة البيه، أنا من شوية ضربت طلقة كدا في الهوا، تنبيه يعنى إن فيه

حراسة مشددة وكدا علشان لو فيه حد كان بيفكر يعمل حاجة كدا ولا كدا في المزرعة ولا يسرق محصول المانجا يرجع عن اللى في دماغه، انت عارف سيادتك إن النهارده ليلة رأس السنة والناس بتبقى مشغولة شوية وبيحصل فيها بلاوى.

نظرت له نظرة ذات معنى وقلت متمتما:

- تبا لك، ولمحصول المانجا، ولتلك الضفادع!

# النسيان.. نعمة

آلام في منتصف الرأس وأسفلها تتملكها بقوة، فتحيل حياتها إلى جحيم مطبق. تنتظر موت لم يأت بعد، تريد أن تتخلص من حياة ملأتها المصائب والأزمات، تلك التي أجهزت عليها وتخلصت منها كما تتخلص من حشرة حقيرة بضغطة من قدم يابس لا تعرف للين سبيلا.

أخيرا، أفاقت من غيبوبة استمرت لثلاث أيام وأربع ليال.. كل ما تذكره أنها أنثى جرحت ولا تدرى سبب هذا الجرح. تنظر إليه، تعرفه، وكم تمنت أن تنساه كما نسيت كل شئ سواه.

رطنت بحروف قليلة:

- أنا فين؟!

فأجاب بسرور مشوب بالتوتر:

- حمد لله على سلامتك ياحبيبتى.

حاولت أن تستجمع قواها الخائرة، انشغلت بنظرات تائهة إلى الغرفة الباردة نوعا ما، التي تستلقى فيها، ثمة أجهزة طبية وخراطيم وأجهزة محاليل تتصل بذراعيها، وذلك الأزيز المستفز الذي ينبعث من جهاز منظم ضربات القلب والنبض والأوكسجين.. غرفة العناية المركزة التي كانت لا تمل مشاهدتها في البرامج الطبية والمسلسلات التعليمية.

يبدو أنها غابت عن الدنيا لساعات، هكذا قالت لنفسها، لكن ترى

ماذا حدث؟! هى لا تذكر شيئا غير أن الواقف قبالتها توا هو زوجها، فقط هذا ما تذكره، هل نسيت أنها أم لطفلة جميلة لم تتجاوز من العمر سنتين؟! هل نسيت أنها أستاذة جامعية في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية؟! هل نسيت أنها نالت أقوى لطمة من الممكن أن تنالها أنثى في حياتها؟! هل نسيت أن هذا الزوج الواقف قبالتها خانها واستغل غيابها ليختبر فحولته الجنسية مع أعز صديقاتها؟! أنسيت كل هذا برمته؟!!

يقول الطبيب المعالج - أستاذ جراحة المخ والاعصاب - أنه قد نتج عن ذلك الحادث المأساوى فقدان مؤقت في الذاكرة قصيرة المدى أي أنها لا تتذكر أحداثا وقعت في الفترة الأخيرة، ومنها بكل تأكيد تلك الخيانة الزوجية، لكنها تتذكر جيدا أن اسمها كذا وعيد ميلادها يوم كذا..

أيكون النسيان نعمة عندما ينسى المرء أو يتناسى حدثا جرحه أو عكر عليه صفو حياته؟!! أيكون النسيان نعمة وإنقاذ رباني من الله لهذا الزوج الخائن البائس لكي يكفر عن ذنبه ويحاول أن يبدأ صفحة جديدة مع تلك المخلوقة الساحرة؟!! يجلس مع نفسه معاتبا إياها.. لماذا يخون امرأة مثلها، فاتنة، رقيقة، جذابة، تصونه في بيته وطفلته الوحيدة؟!! ليس مبررا أبدا أن يكون سبب الخيانة هو انخراطها في الشغل والوظيفة الجامعية المرموقة وكثرة السفريات والمؤتمرات والنشاطات العلمية. ترى أيحمد الله الآن لأن زوجته التي يعشقها حد الثمالة قد نست ما حدث برمته؟!

يذكر جيدا عندما جاءت من السفر منذ أيام، ووجدته غارقا في احضان الصديقة الملوثة. حاول أن يلملم نفسه ويتبعها، لكنها قادت سيارتها بسرعة جنونية لتصطدم الأخيرة بسيارة نقل ثقيلة كانت تعبر الشارع أيضا في نفس

اللحظة. حادث مأسوى تناولته الصحف القومية والمستقلة، نظرا لما تتمتع به الاستاذة الجامعية من سمعة رنانة في الوسط العلمى والتعليمى.

تنظر إليه نظرة ذات معنى، كاد يموت من الرعب لو أنه علم أنها تذكرت ما حدث في الليلة الأخيرة، مستحيل أن تنسى جرحا غائرا لا يشفى منه باليسير كونها أنثى.. تريد أن تقول له شيئا ولا تستطيع، ترى هل نسيت كل شيء إلا هذا الشيء؟!! نظراتها التائهة له تقول كلاما ألسع من لدغات اللسان، يكاد يبتل عرقا من فرط التوتر والترقب.

كم منا يريد أن يفقد الذاكرة لينسى كل ما مر من حياته من أحداث كان لا يريد وقوعها؟!! كثيرة هى آلامنا وآهاتنا، كل منا يحمل في داخله هما وغما لا تقوى علي حمله الجبال العوالى، لكن الهم والغم متفاوت من إنسان لآخر. تجلس بعد أن وصلت إلى سن الثلاثين أو الأربعين أمام المرآة، تنظر إلى نفسك ويدور الحديث الروحى الذي لا مفر منه.

# الميت بتاعنا

إكرام الميت دفنه..

ترن في أذني تلك المقولة، فتجعلني أبتعد احتراقا عن جسد أبي، الذي صار أمانة لا بد أن تودع في حيز لا يتجاوز المترين في متر.. لماذا ابتعد، ولماذا الدفن إكرام؟!!

جاء الحانوتي.. أوسعوا الطريق له كي يبدأ عمله.. لماذا لا أستطيع أن أكفن جسده بيدي، وأنثر عليه من ماء الورد، وأقرأ عليه من الآيات ما يجعله يشعر بالطمأنينة، لتكون له نورا في عالم الظلمة.

مغسلون ومكفنون ودفانون، تلك هي مهنتنا المركبة، والتي أورثناها أبا عن جد، نتعامل مع الموتى أكثر من تعاملنا مع الأحياء.. نتسامر مع الأرواح المغردة حول الأجساد الراقدة، لا يقطع عيشنا حاقد يبتغي عرض الدنيا الزائل، نحن ببساطة نسبر أغوار الحقيقة.

قال لي أبي يوما: يا بني، الغسل سر، وما تراه في تلك الغرفة لا يخرج خارجها قط.

الثواب العظيم الذي يأخذه من حمل على عاتقه عبء ومشقة الاعتناء بتلك الأمانة وتوصيلها في موكبها المهيب إلى مثواها الأخير جعل قلبي يشتد، وعزمي يقوى، لكي أنال ذلك الأجر الكبير. فشاب مثلي نشأ في بيئة مرفهة بعيدا عن عمل الأب، جعلني أشعر بالحرقة والخزي من التنصل من

مهنته، التي جعلتني أنام ساهد العين من توبيخ وسخرية زملاء الدراسة.

غريب هو أمر الإنسان، يدخل الدنيا كما يخرج منها، عاريا من كل شيء إلا العمل.. يجوب الدنيا طولا وعرضا، يصارع الأمواج، يتشبث بالقشة التي ربما تكسر ظهره يوما ما، يفكر في الخلود ويشيد ويعلي ريثما استطاع، ولكن يجافيه التعالى.

أبى، سامحنى فلا أستطيع أن أضع يديّ القليلة على جسدك الطيب، فذنوبي أكبر من أن تحتمل مسئولية تغسيلك وتكفينك، وكيف سأضعك بهما في التراب؟!!

انخرطت في بكائي الصامت في جانب الغرفة المنزوي، بينما انشغل الحانوتي ومعاونوه في القيام بشغلهم الذي ينالون عليه أجرين وربما أكثر. أضع رأسى بين ذراعيّ، أسترجع ذكرياتى معه، أقرأ وصاياه في قلبي وأتمم عليها بجفونى الموصدة.. رفعت عيني مرة، فوجدت ماء الورد يملأ الكفن الأبيض، ورائحة المسك تلفح المكان، فاقتربت أكثر لأرى وجهه يبتسم ابتسامة تمنيت أن أذوق طعمها يوما.

# العذاب الممتع

أقف متلهفا أمام الباب الذي تخرج منه، ثم تعود إليه.

كل ما يهمنى هو أن أراها تخطو أمامى، فينعشنى مسكها المسكر، لأذهب بعيدا محلقا في السماء. لم أعبأ بنظرات متربصة حاقدة لا تتمنى لى غير الغرق والابتلال.. فقط، ما كان يشغلنى هو أن أنظر إلى عينيها، فيطمن قلبي، السقيم بحبه بعدما يأخذ حقه من المسكنات التي لا يطول مفعولها.. كان مرضا ولا أي مرض!

أصحو من نومى مبكرا، معذرة- أنا لم أنم في الأصل- أهندم نفسي، ليس على أطيب ما يكون فأنا على علم وفير من أنها لن تلقى لى نظرة واحدة تروى بها ظمأ طال لسنوات، أهرول إلى الجامعة دون أن أضع في فمي لقمة أو يدخل جوفي ماء.. فقط أريد ألا أتأخر عن موعدها هي، ليس موعدي أنا.

علمت مؤخرا، بعد مراقبة بوليسية دامت لأكثر من أسبوع، أنها إحدى طالبات كلية الآداب،

إذًا فنحن زملاء على أية حال، مع فرق السن لصالحي بالطبع، كوني تخرجت من الكلية منذ مايقرب من أربع سنوات، وهي مازلت طالبة في الفرقة الثالثة، هكذا تقول مصادري المطلعة.

لو كنا زملاء في نفس العام الدراسي، ما فارقت جوارها قط.. هي

بالوصف الكلاسيكي ريحانة وفواحة تفوح منها أجود أنواع العطور وأقيمها، وبالوصف البلدي قطعة من الشيكولاته المحشية باللوز والبندق، وبالوصف الشعبي حاجة موووووووز آخر ٣٠ ألف حاجة.

رأيتها أول مرة عندما كنت أقف في القيلولة في شرفة منزلي، أحاول أن أبحث عن نسمة هواء تائهة وسط حر يوليو المستعر. كنت أحاول أن أسكب زجاجة المياه المثبرة على جسدي في عشوائية. ما نبهني إليها هى تلك الشهقة التي خرجت من بين أضلعها، دون أن تحسب لها حساب، فلم تك تدري أن فكا مفترسا تمرس على صيد الحسان يربض هنا. وقد سمعت تلك الشهقة الانثوية الخالصة، لسبب معتاد معظمهن قد وقعن فيه، فقط لأنها رأت مشبك الغسيل يسقط من يدها، في عملية انتحارية اعتيادية، ليهبط من الدور الرابع على الأرض، دون أن يصيبه مكروه، كونه رفض وبشدة أن يكون حارسا لقميص نوم ساخن أو بيجامة كستور من الأنواع التقليدية. لم تكن شهقتها لأنها رأتنى أسكب زجاجة المياه المثلجة على جسدي، كأبى لهب في أفلام الجاهلية، بل حزنا على فقد مشبك أراد هو أن يرحل.

مذ تلك الشهقة، كانت البداية.. ملأني التفكير فيها حتى ملني.. كنت أفكر في تقاطيع وجهها، أرسمه بيدى العابثة الجاهلة التي لم تتعود على رسم الحور، تقاطيع جسدها جعلتني أحلم بها أحلاما نارية، وكأنها مندوب جهنم ما فتئ يعذبني، تتبعتها في حيطة، فقد كانت حرفيتي شديدة. لما وجدتها تدلف من باب الكلية، اندهشت وفرحت كذلك، لأنني ببساطة لي أصدقاء ومعارف كثيرون داخل الحرم الجامعي وفي كلية الاداب بالأخص.

تم أخذ المعلومات عن الجارة الزميلة، عرفت أن اسمها قمر، وهذا جلي دون أن يخبرني أحد، وعرفت أيضا أنها إحدى طالبات الفرقة الثالثة، قسم علم نفس.. والبقية تأتي.

لم أحاول مرة أن أكلمها، كفاني أن أرى ابتسامتها تنتشر في المكان، كالسهم الذي لا يخطئ، وإن أخطأ الرامي، فهو يعرف أين تختبئ فريسته. كانت تنزل من بيتها يوميا في تمام التاسعة، وتكون في الكلية في العاشرة إلا ربع، تحضر محاضرتين ليس أكثر، حتى وان كان هناك أكثر.. ثم تذهب إلى كوفي شوب الجامعة، وتغيب لمدة نصف ساعة بالداخل، ثم تخرج عائدة الى بيتها في تمام الثانية ظهرا. كانت كلاسيكية بكل ما تحمل الكلمة من معنى.

استمريت على هذه الحال قرابة الشهر وأنا أراقبها، عذابا ممتعا أن أتعلق بها حتى الثمالة، فاستيقظ من نومي، الذي يجافيني معظم الليالي، مبكرا لأنزل وراءها إلى الجامعة. ربما أدخل قاعة المحاضرات، أجلس وراءها مباشرة، أسمع ضحكاتها الهادئة مع زميلات الدراسة، وأخرج قبل أن تنتهي المحاضرة الثانية بدقائق قليلة، لأرى وجهها عندما تخرج. أنتظرها خارج الكوفى شوب حتى لا ألفت انتباهها، وأتتبعها في طريق عودتها الى إلبيت، فإذا صعدت سلم منزلها صعدت أنا سلم منزلي المقابل، لأرتمي على السرير منهكا من سهر طال حتى منتصف اليوم الذي يليه، ولا أبالي.

حتى جاء اليوم الذي بلغ فيه صبري مداه، فقررت أن أقتحم حياتها بكل ما أوتيت من قوة، غير عابئ بالنتائج.. فقط أريد أن أعلمها أنني هنا، في حياتك ولن أخرج إلا جثة تطلب الدفن. حتى جاءت اللحظة التي دخلت فيها الكوفى شوب، كونه المكان العام الوحيد الذي أستطيع أن

أكلمها فيه ولو حتى مجرد تعارف عابر.. أريد أن أسمع صوتها فقط، حتى ولو كانت النتيجة والرد محبطين، فقط يكفيني شرف المحاولة.

وجدتها تجلس بمفردها، يبدو أنها كانت مشغولة البال، فلم تسمع كلماتي المرتجفة التي كانت تقول لها: صباح الخير.

نظرت لى نظرة لم أفهم معناها إلا بعد فترة من الزمن ولم ترد. أطلت بعمق وحذر إلى كوب الكابتشينو الذي أمامها، ثم نظرت إلى الأمام مباشرة.

فرطنت بكلمات غير واضحة:

- على فكرة أنا!!!!!!!!!!!!!!

قطعت كلماتي، فقط لأنها انصرفت دون أن أكمل. استبعدت تماما أنها لا تستلطفني أو لا تريد أن تتعرف بي. بعض اليقين قال لى متأبلسا: هي عادة البنات على الدوام، الرفض والنشوذ والخجل والحياء ثم يأتي القبول، فيوفي بالغرض.

كلمات إبليسية، عشمتني كثيرا أن المراد آت لا محالة، و"باقي عالحلو دقة".

لم أستسلم أبدا ،واستمريت في عذابي الممتع، منتشيا بكل حركة رفض أو عناء نلتها منها.. كانت المتعة ذاتها.

ذات يوم، كنت أقف في الشرفة على أمل أن تخرج لتقضي شيئا أو تنشر الغسيل، الذي امتنعت عن نشره عندما علمت أننى جارها وفي المنزل المقابل لها تماما. دلفت إلى الشرفة بكامل زينتها.. متزينة دائما، بيد أن في هذه المرة هناك شيء زائد، يوحي بأنها تنتظر حدثا مهما، فكانت شاردة تعبث بخصلات شعرها المتدلي على وجهها وعينيها العسليتين. وعندما هممت بقول شيء ما، دخلت بسرعة، لينقطع الوصل ويبقى العذاب في أوج

إمتاعه. وقبل أن أدخل من الشرفة لأستريح، نظرت إلى الشارع متفحصا المارين من تحت البيت، فوجدت الشاب الذي كان يعمل في كوفى شوب الجامعة.. إذا، فهو من نفس المنطقة أو عساه يزور صديق أو قريب هنا، فجأة لمحته يدخل بيت معذبتي، ترى ماذا يفعل هنا؟!!

وبعد حوالى ثلث ساعة، سمعت زغرودة تجلجل منطقتنا!!

# بلطجة آخر حاجة

أنا ياسيدى شاب ضعيف، هذا ما عرفت عليه نفسي طيلة سنوات عمرى، التي جاوزت ربع قرن بشهور قليلة.. شاب كباقى شباب الطبقة المعدمة في بلدنا، تعلمت فقط أن أكتب اسمى بحروف مهتزة، لكني تعلمت من الحياة الكثير، فمرها كان كأسي التي لا تنضب أبدا.

أبى معدم، كحالي تماما، يعمل حدادا، ضاعت صحته في نار وأدخنة الحديد المنصهر، وضمرت عضلاته في الطرق بكل قوته.. شغلانة عتالة يا سعادة البيه. شربت الصنعة عنه كما يلتهم الصغير ثدى أمه التهاما، فمنذ صغري وأنا ساعده الأيمن، لي أخت وحيدة تزوجت وعاشت مع زوجها تشاطره الكفاح في إحدى المناطق القريبة.

كأي شاب يا سعادة البيه، أحببت، وعشقت، وذبت عشقا..

كانت حبيبتي كأي فتاة، تريد أن تتدلل، وتتدلع..

وكأي أنثى نافرة، لها أخ لم أر في قسوته وجبروته.

حارتنا تسمى حارة البلطجية، تملؤها العصبيات والقبلية،

"غابة صغيرة جوا غابة كبيرة"، هذا هو قانوننا ودستورنا الذي لا نعرف سواه.

وبعد عناء، وقلة حيلة، وقلة أدب أيضا، تمت خطبتنا في جو مشحون

وملغوم.. هو يريدها أن تكون لصديق له تجمعه معه القعدة والرصة والتعميرة، ومع ضغوط شديدة من جانب والده الذي لم يحتمل كلام وتلميحات وتلاقيح أهل الحتة، تمت الخطبة التي استمرت ستة أشهر على الأكثر.

فرحت بتلك الخطبة أيما فرح، بيد أن كل يوم يمضي أصنع عداوة مع أخيها، ولكنى على نفس القدر أخط بيدي حرفا جديدا في سجل العشق والغرام، فغرامها كان قبلتي ومقصدي.

وكأي شاب يخطب فتاة، لا بد من أن يزوها في أي يوم، إن أراد أن يطمئن عليها وينعم بجوارها، ولا بد كذلك أن يزورها في أيام معدودات، يقدم المواسم ويهادي في المناسبات، ويخرج معها في الأعياد والاحتفالات..

كنت أزورها على مضض، لا أريد أن أدخل هذا البيت الذي أرى فيه رجلين يضمران لي كل هذا الكره والبغض، وفى نفس الوقت لا أريد أن أكسر قلبها.

حتى جاءت إحدى المناسبات، المولد النبوي، فأغلقت الورشة مبكرا عن كل يوم، وأخذت حماما دافئا منعشا أنفض به غبار النهار وعرقه ولزوجته، "وزي ما بيقولوا كده لبست الحتة اللى عالحبل"، واشتريت حلاوة المولد من عند أشهر حلواني في منطقتنا، وذهبت لها منتعشا.

قابلتني والدتها بابتسامة مصطعنة كمثل التي تقابلها عندما تدخل سوبر ماركت أو أي مكان تجاري. والأب الذي لا يعرف إلا المادة والبيع والشراء وبِكَم، قام بقذف هديتي في الشارع من أقرب شباك، ناظرا لي باستخفاف، سبنى وبصق في وجهي أيضا.

قلت له إن لي كبير، يعرف كيف يأخذ حقي، وأنت في سن والدي، لا يصح أن أعاملك بمثل ما تعاملني به.. اكتفت هى بالبكاء الذي لا تقدر

على شيء سواه.

خرجت من هذا البيت في قمة الغضب، ربما ندمت يوما أنني فكرت في مثل هذا النسب، ولكن كله يهون في مقابل نيلها وامتلاكها.

جئت بأبي لندخل البيت مرة أخرى، لنرى ما الأمر، قوبلنا بنفس الطريقة، وما أحز في نفسي وجعل الدموع تفر من عيني كهروب الماء من فتحة الجسر لحظة انفتاحه، هو رؤيتي لأبي في وضعية المنكسر الذليل.. ماذا جناه أبي؟!

# شهد

جاءت تجرى نحوى بخطوات بريئه، يملأها الحماس والعناد والرغبة في الحياه، والتوق إلى الإنطلاق، ترسم ابتسامه صافية على ثغرها الصغير وكأن فرحة الدنيا قد كستها فغمرتها وفاضت منها لتغرق المحيطين، عيناها تتلألأن كأنهما بلورتان عسليتان فواحتان بإسرار الجمال، وبراعه الخالق، وروعه الصانع، اقتربت نحوى ترتدى لباس النوم الحريرى، تفتح ذراعيها في براءه، تنساب شعيرات رأسها في استسلام ووداعة، تقترب منى اكثر، تحتضننى بقوة، في رغبة حقيقية ألا تفلت من بين ذراعى، كأنها تقول لى: كم أحبك أبى!

أرى سرور العالم في عينيك، وإشراقة النهار في شفتيك، وتفتح أزهار الربيع في خديك.

اليوم عيد ميلادك الثالث يا صغيرتي. مضت ثلاث سنوات ووالدتك راقدة في التراب، وروحها بين يدى الرحمن. أين والدتك الآن لترى كم أنت جميلة، تشبهينها في كل شيء. تلك التي لم ترك ولو مرة واحدة.. حرمت منك وحرمت منها لأن الله أراد..

ها أنا قد حققت حلم حياتها وسميتك شهد، لتكوني أحلى شهد.

أعلم أن الفرح لا يسعها الآن، وهي تشعر بك تكبرين يوما بعد يوم، لترى فيك تجددا لحياة قد انتهت كما أراد الخالق

أذكر مقولتها لي، ترن في أذنيّ، عندما مالت على رأسي وقالت في نعومة:

خالد، لو ربنا رزقنا ببنت هنسميها شهد

فقلت بعفوية:

حاضر ياأم شهد.

كان يملؤها الحماس، لم تكن تعرف أن حياتها سوف تنتهى مع قدوم فرحة عمرها. كانت تقول لي دوماً:

شهد بنتنا لازم تعيش أحلى عيشة في الدنيا، لازم نوفر لها كل شيء، ونعوضها عن كل اللى اتحرمنا منه في حياتنا.

فكنت ابتسم بدورى ولا اعقب.

رحمك الله.

صارت شهد تمثل لى كل شيء في الحياة، فهي ابنتي التي أنجبت، وأختي التي لم تلدها أمي، وصديقتي كذلك، بل ومؤنس وحدتي الوحيد. عندما توفيت والدتها أثناء الولاده المتعسرة، احتسبت وصبرت، وأخذت عهدا ألا أتزوج من امرأة أخرى.. وهبت نفسي لها.

اعتنيت بها منذ الصغر، حاولت بقدر المستطاع أن أعوضها عن حنان الأم المفقود، قرة عيني أنت ياشهد.

عملي كصحفي في كبرى الجرائد لم يمنعني من الاعتناء بها. قررت أن أكتب مقالاتي الصحفية من المنزل، ثم أرسلها عن طريق الإيميل إلى الجريدة، حتى أتفرغ لها تفرغا كاملا.

ومنذ اليوم الأول، بدأت في إعداد الرضعة لها باستخدام الألبان الصناعية، تعويضا هزيلا عن لبن الأم الذي لا يعوض. علمتني الحاجة

كيف أغير لها الكوافيل والحفاضات.. كانت عندي سعة صدر كبيرة لذلك، تعلمت كذلك كيف أحمل مولودا صغيرا على كتفي وأمشي به داخل الشقة دون أن يصاب بلوحة أو جزع جراء حمل خطأ. كنت أشعر بها في كل وقت، فعندما ترفص برجليها الصغيرتين أعرف انها جائعة، وعندما تئن بأنة مكتومة أعرف أن هناك انتفاخات، وعندما تصرخ كنت أعرف أن الحفاضة قد امتلأت ووجب تغييرها.

أداعبها كثيرا بأرق الكلمات، أبتسم لها فتبتسم، أنظر في عينيها فأشعر أنها تعي ماذا أريد أن أقول.. كنت أتحدث معها بالساعات!!

أستغل أوقات نومها لكي أعمل قليلا وأنجز أشياء معينة.. تبدأ يومها من الصباح الباكر، تصحو فترفص برجليها في حتى أفيق، فأضع قبلة هادئة على خديها وأقول بانتعاش:

أحلى صباح في الدنيا كلها، صباح الشهد.

أطمئن على حفاضتها، وأجهز رضعتها، ثم أحملها وأتمشى بها في الشقة، وأجلس معها في البلكونة، أقعدها على رجلي وأهدهدها. ربما نرتاح قليلا فترة الظهيرة.. كنت أحملها على كتفي أثناء وقوفي في المطبخ لإعداد طعامي الخاص، أجلسها أمامي على سطح المكتب أثناء إنجاز بعض الأعمال الصغيرة.

ساعة بعد ساعة، يوما وراء يوم، كبرت شهد قليلا.. بدأت تحبو ثم تقف بمساعدتي، حتى وقفت بمفردها تدريجيا. صارت تعي أكثر، تجلس أمامي، تحرك يديها الصغيرتين، تضعهما في جيب القميص الذي أرتديه، تمسك علبة السجائر الخاصة بي، تقذفها بعيدا مثلما كانت تفعل والدتها

تماما. أقبلها فتشعر أن ذقني طويلة، تؤلمها، فتضغط على خدي في خفة بأصبعها الصغير كأنها تقول لى: دقنك بتشوكني يابابا!..

عندما أنهرها أو أقسو عليها قليلا، تدير وجهها للناحية الأخرى، فأحاول أن أرغمها على النظر إليّ فتأبى، مثلما كانت تفعل والدتها تماما.. تقلدني عندما أصلي، تتمتم ببعض الحروف غير المفهومة، سبحان الله!!

كبرت شهد على الرضعة، أصبحت تأكل الزبادي والبسكويت والأرز وتشرب الشوربة، كنت أجلسها أمامي وأنا ألعب الشطرنج، كانت تتجاوب معي بحركة رأسها، ربما آخذها لزيارة قبر والدتها.. كنت أمسك بيدها وأنظر إليها، فأجدها تنظر إلى شاهد القبر بعينين ذاهلتين دامعتين، أحدثها عنها في همس قائلا: كم هي جميلة طفلتنا ياأم شهد.

أحملها بحرص وأجلسها أمامي على سور الكورنيش.. ربما نتسامر ساعة أو أكثر. أنظر في عينيها، تبوح نفسي لها، كأن صديقا واعيا يسمعنى بإصغاء وحرص.. كنت لا أملها قط ، أشعر أننى أريد عمرا على عمري حتى أكون معها، ملأت فراغي الموحش.

# متسللة

مقيدة بكلبشات معدنية ثقيلة، وجهها الفحمي يلمع في ضوء الشمس كصفحة الماء،

معتدلة، ممشوقة القوام، تمتلك خصرا رائعا، يفصل ما بين نهدين نافرين وأرداف متيقظة، ترتدى بنطالا من الجينز يحمل فوقه سترة من الحرير الردئ، تلف جنبات وجهها برداء قطني صغير، يكاد يحجب عينيها، السوداوين كليل دامس لم يعرف نور القمر ولو من بعيد،

اقتربت منها أكثر، تمعنت عن قصد في تقاطيع وجهها وانحدارات جسدها.. لم ترفع عينيها في عيني، ليس حياء على ما أظن، لكنه الخوف ليس أكثر.

تم القبض عليها أول أمس أثناء عملية تسلل محكمة إلى إسرائيل، عن طريق صفقات يعقدها البدو مقابل عائد مادي ليس بالكثير.. أمر اعتدنا عليه في هذه المنطقة الحدودية الوعرة، لكنها كانت تختلف عن أي متسللة رأيتها من قبل خلال فترة عملي هنا كطبيب، التي تجاوزت السنتين وأكثر.

جلست قبالتها بعد أن تفحصتها بعيني التي لا ترحم ،ثم قطعت حبال الصمت لأعرف المجهول:

- ما اسمك؟

فردت علي بلسان ضعيف قد انهكه الصراخ من هول ما رأت:

- اسمي (هدى)

فوجهت لها سؤالي الجاد:

- ولماذا كنت تريدين أن تعبري إلى داخل الحدود الاسرائيلية؟

- أريد أن أذهب لزوجي.

تركت لها المساحة الكافية لتتكلم، لتشعرني بمعاناة حقيقية لا مثيل لها. كانت تضغط على مخارج الحروف، لا أدري لماذا.. كنت على يقين أنها ضحية لكل شيء.. ضحية الزوج الغادر الذي لم يتحمل أي مسئولية، ضحية الأقدار التي وضعتها وقذفتها إلى هنا لتقف أمامي متهمة بالتسلل والهجرة غير الشرعية لإسرائيل.. قالت بكلمات باكية:

اسمى هدى، عندى ٣١ سنة، سودانية، من محافظة النيل الازرق، متزوجة، عندي٥ أطفال، ٣ بنات وولدين، وحامل في طفل سادس، زوجي لم يتحمل أي مسئولية في الحياة، أنا التي تعول البيت، أعمل رسامة حنة في بلدتنا، كان يأخذ مني المال عنوة ولم يترك لى القليل كي أعلم أولادي وأدخلهم المدارس، أشكو الى الله كل ليلة أن يفرج كربي وهمي، لكن الفرج لم يأت بعد.

تغيب منذ حوالى خمس شهور عن البيت، لم أترك مكانا في السودان إلا وبحثت فيه عنه، لكن دون جدوى. لو كنت أعلم أن الله اختاره إلى جواره لكتبت لي الراحة.. كل المصادر أجمعت على أنه حي يرزق خارج السودان، وبالمصادفة البحتة عرفت أنه قد سافر إلى اسرائيل!

بكيت بكاء شديدا حتى شعرت أن دموعي قد جفت، حتى جاءنى صوت كصوته عبر الهاتف يخبرني أنه بخير وأنه في أمان ولابد لي أن ألحقه.

رفضت في بادئ الأمر، فلمن أترك تلك الأفواه الخمسة، إلى أمي العجوز المريضة؟! أم إلى الليالي وأولاد الحرام؟! ماجعلنى أرفض أيضا أنني حامل وعلى وشك الولادة، كوني تجاوزت شهري السابع بأيام. مع كثرة اتصالاته الهاتفية وإلحاحه الشديد، قررت أن أسافر إليه بحثا عن لقمة عيش رغدة، في بلد لا اعرفه، فقط لأهرب من فقر وضنك بلدي الغني الفقير، وتركت أولادي عند جارتي وقد قلت لها إنني سأسافر إلى مصر، إلى زوجي لأطمئن عليه، وسأرجع في أقرب وقت. جئت إلى مصر عبر الحدود المصرية السودانية بجواز سفر صحيح وبطريقة شرعية، ثم اقتادني رجل بدوي لم أره من قبل وقال لي إنه سيكون المسئول عن توصيلي إلى زوجي. وصدقته، لأن زوجي قال لي إن أصدقاءه من البدو السيناويين سيمهدون لي الطريق لأعبره إلى سرائيل بدون أي عقبات، مقابل ذلك على أن أدفع مبلغ ٤٠٠ دولار أمريكي، تمكنت من جمعه بشتى الطرق.

مشينا في صحراء سيناء، أنا والبدوي وآخرين من ذوي البشرة السمراء من الإريتريين والصوماليين والتشاديين مسافة لا بأس بها، حتى جلسنا في إحدى القرى البدوية على الحدود المصرية الإسرائيلية لمدة ٤ أيام. جاء الموعد لنعبر فيه صبيحة اليوم الخامس، فما إن تخطينا منتصف الليل بساعات قليلة، حتى قال لنا البدويون إن علينا التحرك الآن، وعبر صحراء لم أر فيها إلا اللون الأصفر والحشرات التي لا تعبث، كانت رحلتي إلى هناك. كنت في قمة الإنهاك لأن حملي في أواخره، من الممكن أن اضع وليدي في أي وقت. شعرت أن مياه بطني قد جفت وأن الجنين في خطر، لن أهتم بالخطر لأن ما أفعله الآن هو الخطر ذاته!

فجأة سمعنا دوي الرصاص يهطل علينا من كل صوب وحدب، فجرينا فزعين نريد أن نعبر السلك الشائك، لنكون داخل الحدود الإسرائيلية.. كنت حافية القدمين، أرتدى الجينز، حتى أستطيع الجري، هكذا أرشدنا البدوي، لكن قوات حرس الحدود كانت قد أحكمت علينا المصيدة. لما تيقنت أنني سأقع في أيدي هذه القوات، رفعت يدي وسقطت على الأرض مغشيا عليّ، وأفقت لأجد نفسي هنا مقيدة أقف أمام سيادتك.

# فقط لأنك أبي

أود أن أقول لك شيئا واحدًا قبل أن ترحل..

جئت إليك كي أقول لك، وأنت في هذه الحالة التي لا تحسد عليها، أنني أدعو الله ليل نهار أن يسامحك.. يسامحك فقط لأنك أبي؛ وإن كنت لا تعرف في الأصل معنى كلمة أبوة، فكم كان قلبك قاسيا؛ ومازال وأنت على فراش الموت تنتظر أحق لحظة في حياتك. مذ نعومة أظافري المسلوبة معك، وأنا أراك تفعل أشياء ليس هذا مكانا ولا زمانا لذكرها، فقط دعنا ندعو الله جميعا أن يرحمك ويدخلك جنته، فقط نرجو رحمته.

الشيطان الذي في داخلي قد دون كل خطيئة ارتكبتها في حقي، ذكرني أيضا بأنني ابنك كما تقول الهوية، أنا لا أعايرك ولا أحاسبك، فقط لأنك أبي.

دعني يا أبي العزيز أذكرك ببعض من أفعالك الكريمة معي، وهي كثيرة.. جدا!! أخرجتني من المدرسة وأنا مازلت طفلا صغيرا لم أتجاوز الثامنة من عمري، لما زوجتك المصون قالت إنني فاشل والكل يشكو من شقاوتي وتمردي. نسيت تماما كم كنت متعلقا بالتعليم والمعرفة، خرجت من المدرسة وسط حزن مغلف بألم لم أعهده، وأمي ما زالت على قيد الحياة. تركت التعليم مع أن الجميع توقع لي مستقبلا باهرا لما كان عليه عقلي من الفطنة والذكاء والسرعة في الاستيعاب والتحصيل. وفي نهاية الأمر، رضخت لطلبك، فقط لأن زوجتك أرادت، وأيضا لأنك أبي.

أتذكر يا أبي أنك تركتني عند عمتي التي لا حول لها ولا قوة، فقط لأن زوجتك تتذمر من نظراتي ولا تريد وجودي؟.. تريد أن تنفرد بعقلك وقلبك الملوث بدماء أمي المسكينة، التي رحلت وأنت بعيد عنها، ملهوا بأحضان تلك اللعوب.

تركتني عند عمتي التي عندها من الأبناء حمولة سيارة أجرة تنقل سبع ركاب بين المحافظات، فما كان منى إلا أن اعتمدت على نفسي، وعملت ونمت في ورشة الحدادة، التي كان صاحبها يعاملني أشد قسوة، فضلا عن أكله لأجرة يدي وعرقي، كما فعلت أنت تماما.

أتذكر يا أبي تلك الليالى السوداء التي تركتني فيها في العراء، غطائي هو الهواء المثلج، ودفئي هو الرعد والبرق والعواصف والزوابع، بينما كنت أنت متنعما بالدفء اللذيذ والسكينة تحت الأغطية الثقيلة، التي تقيك البرد والمرض.. ها قد جاءك المرض.

أتذكر يا أبي أنه عندما بلغت سن الرشد، قد منعت مني أنت بأبوتك الغاشمة ميراث أمي، وسلبت حقي فيها بعدما ماتت، كما فعلت من قبل وهي على ظهر الحياة. أتذكر أنك، وبكل بساطة، أخذت حقي، أعطيته لزوجتك وأولادها اللزجين وكأنهم أولادك أنت، من صلبك أنت.. نسيت أنني محتاج.. ونعم الأبوة!

أتذكر يا أبي عندما تهجم علي أحدهم وأبرحني ضربا دون أي وجه حق وسبني قائلا: غور ياابن الكلب!.. فماذا فعلت؟!!.. أذكر أنك وبختني وبعنف لما بكيت، لإحساسى بانكسار عزة نفسي وكرامتي وقلت لي بحروفك الغليظة، كما هي دوما: مفيش راجل بيعيط زى النسوان.

كل هذا يا أبي حدث فقط، لأنك أبي، والمواقف كثيرة.. لكل موقف علامة واضحة في شخصيتي وهيئتي وجسدي، فما زالت علامات سوطك تلهب ظهر المتعري.

أنت الآن على فراش الموت، ربما تبحث عن حسنة أو معروف فعلته، حتى تتمسح فيه في مقابلة من لا يغفل ولا ينام.. لقد نسيت أن دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب، وأنها دعوة منصورة، طال الزمن أو قصر.. وأنا للآسف لم أدعو عليك قط!.. أتعرف لماذا؟.. فقط، لأنك أبي!

# مريض الرابعة فجرا

برودة يناير القارسة جعلتنى أتخذ من غرفة الطبيب الخاصة ملاذا..

ربما كنت أستلذ بكوب اليانسون الدافئ، الذي حمى جوفي البارد من هذا الصقيع..

وعلى أنغام كلاسيكية هادئة، أقرأ في أحد مراجع الجراحة العتيقة، وبين كل معلومة وأخرى أتوه ثم أرجع إلى الأرض، حيث الواقع الذي فرض عليّ تلك الحياة، ويستمر العراك الأبدي.

لم أعد أرى الشارع من النافذة، فقطرات الندى المعبأ ببخار ماء الفجر البكر حجبت عنى رؤية كل شيء، وكلما سرى الدفء في جسدي، كلما أحسست بحاجة ماسة إلى النوم العميق.. ما أحلى الشتاء إن كان هناك دفء!

طرقتان على الباب أفاقاني من تلك الترنيمة الهادئة.. صوت مألوف، ولكنه مزعج في كل مرة:

- إلحق يادكتور، فيه حالة دخلت دلوقتى الاستقبال، والظاهر عنده كرشة نفس حادة.

أجيب على هذا الصوت بمنتهى الغيظ:

- وانتِ ليه مااتصلتيش على الرقم الداخلى؟

فنظرت هي إلى الهاتف المجاور لي، ولم ترد.. فقط لأنه ليس هناك رد.

نظرت إلى حيث نظرت هي، فوجدت السماعة معلقة... تداركت

الأمر، ونسيت أنني من فعل ذلك حتى لا يزعجني أحد!!

تبا لي.. نسيت أو تناسيت أنني في مستشفى وأنني في قسم الطوارئ ومن الممكن أن تحدث كارثة في أي لحظة. يبدو أن الدفء الذي سرى في اوصالى جعلنى أننى في البيت، مستلقيا على فراشي ووسادتي.

تركت الكتاب الذي كان بين يدي، وهرولت إلى حيث الحالة العاجلة التي أتت في مثل هذا الوقت، في مثل هذا الجو غير العادي. ربما زاد من حماستي شعوري بالواجب لكي أنقذ حياة هذا المسكين أو تلك المسكينة..

شيخ عجوز، ربما عبر السبعين خريفا بشهور، ثمة وجه تملأه التجاعيد وصلعة خفيفة، كانت لا ريب نتيجة شباب مزهر ومورق، وجسد نحيل بطبيعة الحال، يستند على عصا من العاج، ربما كانت ما يميزه على الإطلاق.. أنفاس تتسارع لاهثة، تدافع عن نفسها من قبضة الموت الحديدية.

ما لفت انتباهي في ذلك الوجه، أنه ظهر لي مألوفا من أول وهلة.. وقعت شيبته ووقاره في قلبي بأسرع ما يكون، عينان ضيقتان عميقتان تنظران إلي بتمعن وافتراس..

يقف بجوار هذا الجسد شابة، ربما ما ظهر أبيض فيها هو ذلك الوجه واليدين، كونها ترتدي عباءة سوداء أنيقة، خمنت أنها ابنة الشيخ.

قمت بعملي على أكمل ما يكون، أخذت تاريخ مرضي سريع عن حالته الصحية، ووقعت الكشف الطبي المتفحص، وقمت بوضعه على جهاز التنفس الصناعي حتى تنتهي تلك الأزمة الصدرية.

خرج هذا الرجل من عندي بعدما استراح، وشكرني ممتنا، شكرا ربما لا أستحقه، عيناه ما زالت تتفحصني بكل بقوة، ولكني لم أبال.

تكرر هذا الأمر أسبوع كامل، كل ليلة في الرابعة فجرا، يأتى هذا العجوز البائس إلى المستشفى بصحبة ابنته الشابة، ولكنه ليس مريضا كأول مرة، فقط كان يأتي كي يراني!!

كان ينظر لي ثم ينظر إلى ابنته، فتنظر هي إلى أسفل دون أن تنبس ببنت شفة. كنت في قمة الدهشة أحاول أن استقرئ ما بين الكلمات ربما أحصل على مبتغاي فأرتاح ويهدأ بالي، ولكن دون جدوى..

ذات مرة، خرج من عندي كعادته، بعدما قضى معي ساعة او يزيد مثل كل ليلة، ولم يأت بعد ذلك. مر شهران كاملان، فلم أعتن بالأمر، حتى فوجئت بتلك الشابة تأتي إلى المستشفى في نفس الساعة التي تأتي فيها مع والدها..

جلست، فسألتها عن والدها، فقالت بأعين دامعة: مات.

ثم قالت بتأثر، أتدري لماذا كان ينظر لك كثيرا؟

فقلت: لا.

قالت واضعة عينها في عيني: فقط لأنك تشبه كثيرا أخي الذي مات.

# قسمة مالهاش نصيب

كاد الهواء المنبعث يعصف بكياني، سيارات من مختلف الموديلات، تعبر الطريق في سرعة بالغة، أصوات مكبرات الصوت المزعجة تتشاجر في سيمفونية عبثية تخل بالتنظيم الوظيفي لطبلة الأذن، ديسيبلات كثيرة العدد تفوق المائة والمائتين تنبعث من أبواق لا تعرف إلا كلمة ضجيج، أصوات المكابح لا تسمع أبدا، فقط أكسيلاتيرات تتسابق في شارع من أهم شوارع المدينة وأكثرها حيوية.

لم يشغلني هذا برمته، فعيناي معلقة مع هذا الجسد الذي أراه في الجانب الآخر، ضخما، يريد أن يعبر الطريق، لكن خطواته خائفة منزعجة، ربما لم تعتد على مثل هذه الضوضاء، ربما لم تألف تلك الهياكل والموديلات، بدت غريبة عن المدينة.

قلت لها بصوت عالٍ، أحاول أن أجعله أكثر اتزانا، راجيا الله ألا تتهور وتعبر الطريق بمفردها:

- لا تتحركي، فقط قفي مكانك سيدتي، سآتي إليك.

يبدو أنها لم تسمع كلماتي كما ظننت.. رأت يد مرفوعة لأعلى، تلوح لها من بعيد، ربما ظنت أني لا أقصدها أصلا، ومعها كامل الحق، فكيف لها أن

تسمع صوتا بشريا ضئيلا وسط تلك المعركة الدائرة.

عبرت الطريق بخفة معتادة، تمرست على عبور مثل هذه الطرق من المدينة بمنتهى الخفة والرشاقة وسرعة البديهة والحذاقة، والحمد لله وصلت إليها قبل أن تعبر الطريق، فلما اقتربت أكثر وأكثر وضح لى المشهد وأزيل الغمام.

الجسد الضخم كان جسدين في الحقيقة:

الأول، هو لسيدة ربما مضت في الحياة أربع عقود كاملة أو يزيد، ولكن يعلوها مسحة من شباب مغلف بتجاعيد الحزن والقهر والذل وغلبة الأيام، جلباب رث يكسو جسد كان من أنفر الأجساد قبل ذلك بسنوات، فهو ما زال يحتفظ باستدارة حريفة في زمن كان فيه الجمال طبيعيا من غير ذى اصطناع، يعلوه رأس ذات شعر مهوش، متلفحة بمنديل من القطن مطرز بالترتر في نسق، الرأس متدلية على رقبة كرقاب الغزلان في اسطوانيتها، يزينها عقد بسيط من المسابح الخشبية، وأسفل تلك الرقبة الجهنمية برز نهدان ولا أروع.. جسد لدن، يرتكز على رجلين لم أرهما الحقيقة فلا أجد لهما وصفا، ترتكزان على كعبين منقوشين بحناء سودانية أصيلة.

أما الثانى: فكان محمولا على الجسد الأول، كان لفتاة صغيرة ربما لم تبلغ أعواما أربع، يبدو أن حالها كحال حاملتها تماما، إثنتان انحدرتا من جبل من الفقر لتقعا في مستنقع من الجهل والرق..

عندما وصلت إليهما، ووقفت في قبالتهما، قالت السيدة بصوت منكسر، مادة يدها:

- حاجة لله ، ساعد طفلة يتيمة مريضة....

قبل أن تكمل عبارتها المألوفة، مددت يدي في جيبي وأخرجت (اللى فيه النصيب)، لكني لم أضعه في يدها الممدودة، وضعته في يد الفتاة المسكينة وأنا أقول لأمها:

- ما اسمها؟

قالت في مرارة:

- قسمة

# عتاب أسري

ملك القوم بجبروته، واستعبد الحارة المسكينة، تلك التي جعلته ملكها وحاكمها. أنكر هذا الجميل كالقطط، وهى منه بريئة، يقولون إن الحارة جعلته فتوة لها رغما عنها، تفاديا لقسوته وبطشة يده.هناك أيضا الوصوليون والمنتفعون والمهادنون والمنافقون، يفغر فاه البغيض الذي ينم عن أسنان قبيحة عندما يسمع ثناء لا يستحقه، من لسان جلب على النفاق وحب الرياء، كأنه يعيش في انعزال تام عن رعيته. هناك من يقول له إن أهل الحارة يسبحون بحمده، فظن نفسه إله منزه عن المحاكمة والنقد والجدال.

كانت يده تبطش، ونبوته يفرق، وصيحته ترعب وتزلزل.. القتل شريعته، والهلاك لمن سولت له نفسه أن يرفع صوته أو حتى يفكر في أمر كهذا.. استفحل الداء، وظن أنه ناج.. ولكن هيهات!

وعلى خطى كل من سبقوه في إدراة الحارة، بدأ يعد ابنه الساذج المتغطرس ليكون شر خليفة لشر الخلق. ولما لا يفعل ذلك، وقد ظن أن الحارة إرثه الذي ورثه عن أجداده العظام، مع أن تاريخه لا يحفل بأي عظمة أو مجد، ولا يذكر أنه ينحدر من سلالة الكبار. من هنا دق بيده المسمار الأخير في نعشه.

لما طعن في السن، انعزل تماما عن أخبار الحارة.. كانت لا تأتيه إلا الأخبار المزيفة، وأن الجميع يعيشون في رغد وسرور. تولى ابنه كل شيء،

والإدارة الكاملة مؤيدا بأصدقاء السوء من المنتفعين والفاسدين، ومؤيدا أيضا من أمه – زوجة الفتوة – التي لا تريد أن تخرج الفتونة والنبوت من هذا البيت العريق. نست تاريخها بنت بائعة الخضار، ابنة الحانوتي، الذي استغل الأموات قبل الأحياء.. بيد أن النسيان نعمة.

تفشى الفساد حتى إن القوارض التي تلهث وراء أكوام القمامة قد نفرت وهجرت الحارة، لأن الرائحة العطنة قد أزكمت أنوفها. فرائحة الفساد أقوى وأنفذ.. ظنوا أن الحارة أصبحت محكمة بقبضة من حديد، فزادت نسبة الإتاوة، بل وزاد وضع اليد الإجباري على كل أرض تشتهيها نفس الفتوة الصغير.. زاد بطشه بكل ما يمر بطريقه من جماد وحيوان وإنسان.. لم يرحم الأطفال الصغار الضعاف، ولم تك عنده المروءة التي تجعله يرأف بالنساء والولايا، استباح الدماء وهتك الأعراض، وتعالى في الأرض ومشى فيها فسادا.

لكن من رحم المأساة يولد الأمل، ولد شباب لا يرضي بهذه الذلة والمهانة، لا يتهاون في حق من حقوقهم، دبروا مكيدتهم حتى عصفوا بالفتوة وابنه، وقاموا بمسيرة حاشدة تضم في اتجاهها الكبير والصغير، الطفل والشيخ والنساء، مقصدهم واحد، وهو بيت الظلم.

ظن أن قواته المخوخة تستطيع أن تردع هؤلاء، وتحميه وتحمى ممتلكاته وإرثه الزائل، ولكن خذلته تلك القوات، بعد معارك طاحنة استخدمت فيها كل وسائل التعذيب والتنكيل، بيد أن النصر كان من نصيب الإرادة الشعبية

التي قالت "لا".. بعدما ضاع الكثيرون، ولم تعد أنهار الدماء تحتمل فيضانا أكثر، وعندما أيقن أن الخطة محكمة، وأنه هالك لا محالة، وبدهاء الثعالب ودموع التماسيح، أخذ يستعطف القلوب الرحيمة التي أذاقها مر القسوة والوعيد، لكنها لم ترأف به كما لم يرأف بها. حبس في بيته، لا يخرج منه حتى يموت جوعا، بدلا من أن يشنق وتتدلى رقبته من مقصلة في ميدان عام هو وابنه وزوجته، وعندما هدأت الأنوار، كان هذا العتاب الأسرى.

قال الأب "الفتوة" في ضعف وانكسار لزوجته:

- ها نحن قد هلكنا وجاءت النهاية.

فقالت الزوجة المتعجرفة:

- لا بد من حيلة لكي ننجو من هذا الهلاك.

فقال في غيظ:

- ألن تسكتي بعد، ألم يكفيك ماجرى؟!.

فقالت في غضب:

- أراك تحملني المسئولية كاملة.

فأجاب بسرعة:

- بلى، كونك السبب في كل ما يحدث لنا.

فقالت:

- كيف؟!

فأجابها:

- أنت التي ملأت أذني ابنك الحيلة بحلم الفتونة.

فقالت مستنكرة:

- أتعاتبني لأنني أردت أن أجعله مثلك، وخليفتك في قومك؟!

فقال في استهجان:

- تقصدين أنهم كانوا قومي، لكنني ابتعدت عنهم مسافات ومسافات.

فقالت في غيظ واضح:

- هم لا يحفظون الجميل، ألست فتوتهم وحاميهم؟!

فقال في غضب:

- بل أنا الفتوة الباطش الذي لم يصن الأمانة.

فقالت:

- كفى، لا أريد أن أسمع المزيد.

فقال في قمة الغضب:

- بل سأسمعك الكثير، ها قد أغرقنا ولدك المدلل.. كان سبب هلاكنا، عندما أعلنا أنه سيكون الفتوة القادم، لم ينتبه إلى أي نصيحة، وصاحب القوم السوء الذين لا يحبونه، لكن يخافون بطشه ويهابون غدر الأيام.

فقالت:

- لا تحمله المسئولية كاملة.

فقال في ذلة:

- كلنا مسئولون، أنا وأنت وذاك الأرعن الذي يعبد الملذات

والشهوات، لن تكفي ولن تشفع دماؤنا لتكون عوضا عما اقترفناه في حق هؤلاء المساكين.. لا بد أن نموت في اليوم والليلة مائة مرة.

وهنا نطق الابن الذليل:

- كفاكما ما نحن فيه، سنموت أشر موتة، سنكون عبرة وآية لمن لا يعتبر، ستروى قصتنا على الربابة، قصة الفتوة الذي ساقه جبروته ليهلك هو وزوجته وابنه.

ثم ساد الصمت، الذي لم يقطعه إلا ملك الموت.

# صلاة في السماء

" سنصلي العيد سويا بإذن الله في ساحة المسجد الكبير"

لم أكن أدري أن تلك هى الكلمات الأخيرة التي ستلتقي فيها ألسنتنا..

يقولون إن القدر محتوم لا محالة، وأنك لن تصاب إلا بما كتب قبلما ترفع الأقلام وتجف الصحف.

عشنا أياما لم تكن كأي من مثيلاتها مضت.. قتل وتشريد، وهتك للعرض والأهل والنفس..

صارت أراضينا مخضبة بالدماء، أنهار تموج باللون الأحمر القاتم، تستقر في قيعانها جثث وأشلاء متنوعة، ما بين شاب ورجل وشيخ وسيدة.

حتى جاءت ليلة عيد الفطر..

هو صديق عمري ورفيق دربي.. أذكر أيام صبانا اللاهية، كنا اثنين لا نفترق إلا عند النوم.. كبرنا وترعرعنا وسط أهل زرعوا فينا حب الوطن وحب الجهاد، علمونا جيدا أن الإنسان بلا وطن كالمريض العاجز الذي ينتظر عطفا دنيويا زهيدا؛ بيد أن العطف الرباني أرحم وأحن.

قامت ثورتنا المجيدة، وامتلأت الساحات بالدماء، وتكدست الصحائف بالشهداء..

كنا نرى أن النصر آت لا محالة، لأن الله أراد، والشعب ثار..

كنا نحصي سويا أعداد الشهداء والمصابين، لا نكل ولا نمل من الجمع

والحصاد، نزفهم إلى السماء بأثواب ناصعة البياض، يفوح منها مسك الجنان في عرس مهيب وحضور غفير ورحمات منزلة من السماء.

كان يقول لي دوما: هل سيكتب لنا صيام رمضان في الدنيا؟ وهل إن كتب لنا الصيام إيمانا واحتسابا، فهل سنصلي العيد سويا كما هي عادتنا كل عام؟

كنت أجيبه بنفس راضية مطمئنة: صديقي، لا قطع الله لنا عادة.

مر الشهر الكريم محملا بأعداد كبيرة من العتقاء والشهداء، كأن الله أراد أن يكون الأجر ضعفين، أجر الشهادة وأجر الصيام فكانت الجائزة الكبرى والهبة العظمى.

لم يأت إلى صلاة العيد كما اتفقنا، ترى ما الذي أخلفه عن موعدنا!.. لعله خير!

انتهت صلاة العيد ولم أجده بجواري، بحثت عنه بعيني القلقة المتلهفة إلى رؤيته أو سماع خبر عنه، حتى وجهنا الإمام إلى أن نصلي صلاة الميت ترحما على شهداء فجر يوم العيد..

فوضعت الأكفان أمامنا، فلمحت وجهه الأبيض البشوش، فبكيت طويلا.. ثم تبسمت، لأن عيده سيكون في السماء، وصلاته ستكون هناك.

# قصة جنسية

فى حى شبرا الشعبي، ولدت، أحمل طابعا مصريا خالصا. كانت ظروفي صعبة، والدي شيخ قعيد يحمل في رقبته سبع رؤوس، وأمي على أعتاب الشيخوخة، انحنى ظهرها من كثرة الخدمة في بيوت الأثرياء والمقتدرين.. أكبر إخوتي سنا، على قدر عال من الجمال والفتنة، ما إن وصلت إلى سن السادسة عشر حتى التهمتني عيون الشبان في الحارة وفى الأحياء المجاورة، جلهم يريد جسدي.. ظنوا أنني سأكون لقمة سائغة تلوكها أفواههم النتنة. كنت أرجل من أرجلهم، وأشد بأسا من أشدهم، أصدهم بكل ما أوتيت من قوة، تلك التي تخور عندما أختلي بنفسي تحت ضوء القمر الهامس، الذي يداعب خصلات شعري المرمري من خلال نافذتي الصغيرة. كنت أبكي وتصرخ أعماقي وتهتاج مشاعري، تحسرا على حالي وحال أهلي البائسة.

ذات يوم، جاءت الست نبوية الخاطبة إلى أمي، تزورها وتشد من أزرها، ولم يكن هذا هو السبب الوحيد لتلك الزيارة المفاجئة، فالحارة كلها تعلم أن الست نبوية كثيرة التنقل والترحال، ربما تسافر في شغل في إحدى قرى الدلتا أو نجوع الصعيد الجواني.. هذا هو أكل عيشها، تستطيع بخبرتها الطويلة في هذا المجال أن تأتى بعريس لقطة لأفقر بنت في العالم، ولكن بشرط أن تكون البضاعة تستأهل ما يدفع فيها!!

شريطة أن تكون صاحبة النصيب على قدر من الجمال، ذات جسد

فائر، فيغفو ذاك الغليان بالمال المتدفق، تلك الصفقة التي غالبا ما تكون رابحة للجميع عدا للسلعة ذاتها!!

بهذه الطريقة التجارية البحتة، تزوجت من أمير سعودي، أو بمعنى أدق تمت البيعة بعد إرضاء صاحب البضاعة. رضيت أن أدفن شبابي تحت أحضان شيخ عجوز يكبرني بمثل سني مرتين أو يزيد تقريبا، لكي أطعم تلك الأفواه الجائعة، والأمعاء التي تحجرت من قلة سريان الطعام. لم أكن أنانية ولا انتهازية، عندما وافقت أن أباع بتلك الطريقة الرخيصة ،التي تشبه بيع الرقيق في أسواق النخاسة.

مرت أشهر قليلة، لم تتجاوز الثلاث، حتى شعرت بحركات غريبة في أسفل بطني، وبدأت تدريجيا أشعر بنفور من راوئح الطعام المختلفة والغثيان الذي يعقبه قيء.. فرح زوجي أيما فرح عندما عرف أنني أحمل في أحشائي ذكرا من صلبه، سيحمل اسمه ويمجد ذكراه بعد وفاته، لكن الفرحة كانت أكبر من احتماله لها، فمات بعد ليال قليلة، وتركني وحدي بين نسوته أذوق الأمرين. وضعت حملي في كبرى مستشفيات المملكة، وقمت بتسجيل الطفل باسمه في السجلات المدنية السعودية، واستخرجت له شهاده ميلاد، ثم عدت إلى القاهرة تاركة كل ميراثي وميراث ولدي.

عدت إلى أهلي.. كانت فرحتهم كبيرة بهذا المولود، الذي أقر عيني وملأ عليّ حياتي.

ما جعلني أتحسر على حالي ليس شبابي الذي ضاع بين أنفاس مريضة لشيخ كبير، لكن هو أن طفلي يحمل جنسية غير جنسيتي. لم أتهاون في الأمر، طرقت كل الأبواب الموصدة، لكنها كانت مصمتة.

# فرح بطعم الحزن

" طبعا ياحبيبى، لازم أجى، ألف مليون مبروك.. وربنا يتمملك بخير يارب"

تلك هي كلماتي التي خرجت من قلبي، لتصل إلى قلب صديق عمري مباشرة.. اتصاله الهاتفي أنساني غضبي منه وعتابي له لأنني لم أسمع صوته منذ سنوات.. لا أعلم من منا له الحق في الغضب والعتاب واللوم، كل ما أعرفه أنه صديقي، وكفى بها نعمة..

أذكر أيامنا الجميلة في الكلية.. خروجاتنا المغامرة، وحكاياتنا السامرة، وليالينا الحالمة.. أذكر ايضا، أننى كنت سببا، بعد الله تعالى، في اختياره لشريكة حياته..

ها أنت الآن ياصديقى، تضغط بأصابعك على مفاتيح هاتفك ليأتيني صوتك الذي أحفظ نبراته، مهما حاولت مداعبتي، تزف لي هذا الخبر السعيد، وكم أنا في أمس الحاجة لسماع مثل تلك

الأخبار.. كان الموعد هو ثاني أيام العيد، استيقظت من نومي كسولا بعد العصر، مع أنني أذكر أنني نمت مبكرا، ولكن" النوم بيجيب نوم".. صداع رهيب يسقط على عينيّ ومنتصف رأسي، زكام حاد ، صفير في الأذن، صعوبة في البلع، ونشفان في الريق.. لابد أن أتخطى هذا كله، فقط لأن الليلة ليلة ولا كل ليلة.. فالفرح بالنسبة لى الليلة فرحان: فرح، لأنني

سأرى صديقى سعيدا مبتهجا، متألقا كعادته.. وفرح، لأنني بالتأكيد سأرى كثيرا من أصدقائنا وزملائنا، الذين أنقطعت الصلة بيني وبينهم منذ حين. هكذا نحن نبتعد، فتجمعنا لحظات السعادة أو الحزن..

تزينت كما لو كنت أنا عريس الليلة.. كنت هادئا، ساكنا، متألقا.. انطلقت بسيارتي إلى حيث القاعة التي أقيم فيها حفل الزفاف.. كم فرح صديقي عندما رآني، وكم فرحت له! كانت ليلة رائعة، لو كان للسعادة لسان لنطقت..

فى منتصف الليلة تقريبا، رأيتها!!!

فسألت صديقى: هلا عزمتهاَ!

فباغتني قائلا: جاءت مع خطيبها هشام

فقلت بسرعة: أين هشام هذا؟!

فقال: هو على يمينك تماما..

فنظرت له نظرة، ولها نظرة..

ثم تركت الفرح دون أن أستأذن من الصديق..

# فى انتظار عزرائيل

سيارة فارهة، ذات ماركة عالمية، تحمل لوحات معدنية مميزة، تقف أمام فيلا من الطراز الرفيع، تحيط بها مساحات خضراء، وأشجار عالية من الاتجاهات الأربعة، يتوسطها مسبح لا تقل زرقته عن زرقة السماء التي تغطيه، أثاث وتحف عريقة تحمل طابعا أسطوريا ولوحات فنية عتيقة تحمل بصمات ملوك الفن التشكيلي، وبهو واسع تتوسطه مدفأة كبيرة تملأ هذا المكان البارد بالدفء الرقيق، وكلب من نوعية الدوبرمان ينبح بقوة إذا ما أحس بخطر قريب، وغرفة مكتب تسكن فيها مكتبة رفيعة تحمل في جنباتها أمهات الكتب في العلم والسياسة والتاريخ والطبيعة.

نسيت أن أقول شيئا من الأهمية بمكان، رأس ويدان ورجلان،، هذا أنا!!

أسكن وحيدا في هذه الفخفخة، فيلا تملؤها الأشباح كما يملؤها الهواء، وصدى صوت يتكرر كل ليلة، لتكون جلسة السمر اللامرئية على شرف صاحب الدار.

أن تعيش وحيدا، تحدث نفسك تارة، وتارة تعف هي الحديث، ربما تسعد وتهنأ بعض الوقت بالهدوء التام، لكن لضجيج الحياة متعته أيضا كما أن للهدوء سكينته.

يا من يبحث عن الهدوء، فقط اسكن معى أسبوعا واحدا، ستزداد طمعا لترغب في شيء آخر، الموت، أن تموت وحيدا منعزلا، تختفي بأسرارك

وأفكارك، لا تجد من يكون بجوارك عند هذه اللحظة الحقيقية، هي المأساة بأم عينها.

ذكريات حياتي تمر على ذهني تباعا، أياما عصيبة، أخرى جميلة، لكنها قليلة، كنت أفرح بمفردي، أحزن بمفردي، ربما أضع هاتفي المحمول في مكان وأنسى أين وضعته، ربما أنسى موعد دواء السكري الذي أواظب عليه طيلة عمري، ربما أنسى أن الشعيرات البيضاء بدأت في الهجوم على جوانب رأسي ثم الجبهة والمؤخرة، أنسى كذلك أنني الآن قد جاوزت الستين بأشهر قليلة.

أعيش وحيدا منذ ما يقرب من ثلاثين عاما، حين فقدت زوجتي في حادث سيارة مأساوي، قررت أن أبيع كل ما أملك لأشترى هذه الفيلا، ليس لأنني أحب الفخفخة والعز والتمرغ في الملذات، لكن لبعدها نسبيا عن العمران والناس. لا أكذب إن قلت إنني أشتري كل ما يلزمني من طعام وشراب وماشابه ذلك كل ثلاثة أشهر مرة، ويكون يوما كئيبا كوني في هذا اليوم أرى الناس، فقط رؤيتهم تجعل حمما من الأدرنالين تفرز وبكل قوة، ضربات قلبي تزداد، تسرع وربما تقع من فرط التعب والإرهاق.

لم أكن كذلك قبل الحادثة، لماذا تأتي صدمة السيارة المقابلة في المكان الذي كانت تجلس فيه قرة عيني؟!

قبل ثلاثين عاما، قررت أن آخذ إجازة مفتوحة من وظيفتي، أستاذ جامعي متفرغ، كنت مازلت مدرسا بالكلية آنذاك، تفرغت قبل موعد تفرغي بثلاثة عقود، بيد أنني لم أنقطع عن تحصيل العلم والمعرفة، فكان مدرج محاضراتي هو غرفة مكتبي. كنت أنكب على القراءة والاطلاع حتى

تدمع عيني، فأقوم متثاقلا لأرتمي على أقرب سرير في الفيلا.

الآن وقد بلغت من الكبر عتيا، لم أعد أفارق الفراش قط ، أضع بجواري كوبا من الماء وأقراص الدواء وبعض المأكولات الخفيفة اللينة، أنتظر ضيفا ربما وحتما سيكون أول وآخر ضيف سأضيفه، هو يعرف طريقه جيدا، يجدني ولا أجده، يرحب بي ويحتضنني ولا أرحب به، ليس لزوجة مني أو جليطة، فقط لأنني ببساطة لا أراه، فهو الضيف الذي يأتي دون موعد مسبق.

# مالك

أسند ظهره على حائط رملي عتيق، ناظرا إلى دابته التي أنهكها السفر الطويل، مارا بقرى ونجوع تلك الأودية المنبسطة في هذا القيظ، كل ما يرجوه الآن هو أن يرتاح قليلا، ويريح الدابة التي نحفت وبرزت عظامها، فمازال الطريق طويلا.. هو لم يكمل حتى ربع المسافة.

أنزل المتاع الى جواره، جرابين من جلد الماعز يمتلئان بالماء العذب، مربوطين بحبل متين، ومنديلا من القماش يحمل بضع ثمرات من التين والتوت، وعصا من الكافور ملتوية القوام تستند هي الأخرى على نفس الحائط.

مالك، هكذا سماني أبي، تيمنا بمالك الإمام،، جئت من حضرموت اليمن، عملي سقا، هكذا يناديونني السقا مالك،، ملابسي -كما ترى- قطعتان من الخيش المصنوع من سعف النخل وقش الأرز، هذا شالي يلتف حول رقبتي، ربما يحميها من برد الصحاري الذي لا يعرف الدفء، وربما أحزمه على وسطي عندما تداهمني الآلام في أسفل الظهر، جراء المشي الطويل والحمل الثقيل.

ترى نعلي المصنوع من جلد البقر الردئ،، هذه شامة تعلو أيسر ظهري، عبد يباع ويشترى في أسواق النخاسة،، وهل يجرؤ العبد على مغازلة سيدة من الأشراف!!

أذكر أنني تلفظت بتلك الكلمات المسترسلة عندما حاجني سيد من

الأشراف عند قاضي البلدة شاكيا إياي أنني قمت بمغازلة كريمته، عندما كانت في السوق تشتري بعض أغراضها، فاقتنع القاضي بكلامي وسقطت التهمة عني.

أذكر أنها كانت جميلة كغزلان الصحاري الحرة، لا يجمح جماحها بشر، سيدة هي أصلا وفصلا ونسبا وحسبا، كانت كوردة قرمزية اقتطفت لتوها من أحد بساتين الجنة، لتهبط إلى أنوف الدنيا فيملأ عطرها الوجود، وتسعد برؤيتها العيون.. حورية تتألق وسط نجوم باهتة، فأخذت المشهد كله في مسرحية جمالية بديعة. لكنني لم أعاكسها أو أعترضها، وهل حرم علينا قولنا للجميل أنه جميل؟!!

ثم من يصدق أنها تنظر لسقا مثلي يعمل أجيرا عند سيده، يوزع الماء هنا وهناك، ربما يعطف عليه صاحب بيت فيعطيه كسرة من الخبز أو ملء كوب من لبن الماعز الذي بات فتأففت من شربه الأطفال والغلمان..

لماذا أذكر تلك الحادثة الآن، يبدو أن استراحتي خلف هذا الحائط ذكرتني بها، هيا يا دابتي، فلا وقت لدينا للذكرى وبكاء الأطلال، فمازال هناك عمل.

لن نجلس ثانية خلف هذا الحائط.

# الأنفاس الأخيرة

هادئة، لا تقل في سكونها وصمتها عن أنفاسهم الواهية..

أنفاس ميتة، أو بمعنى أدق تستعد للموت الذي كان معزوما على إفطار رمضاني جماعي

هو، الضيف الذي يعزم نفسه بالقوة..

لا يحتاج إلى عزومة "مراكبية"، أو حتى عزومة جادة تقطع فيها الرقاب لا يستأذن أبدا، ما ليس يضمنه أحد.

وهم، حماة الأرض والعرض، يعرف قاموسهم جيدا ما معنى كلمة وطن..

أنفاسهم تحمل رائحة الدم..

حركاتهم بطيئة، متثاقلة، فهو آت.. آت

هكذا شعر جميعهم..

" أنا ياعم الحمد لله هاعيِّد في بيتنا وسط أهلى وأخواتى "

هكذا، خدعته الكلمات، أحرف كانت ضحية لقدر صرف بيد إله أعلم.. لا يعرف أن عيده هذا العام سيكون في السماء، وسط الملائكة.. لا يعرف أن شهادته ستكون أكبر عيدية أخذها في حياته.

" أنا إن شاء الله هانزل أخطب جميلة بنت عمى "

هكذا قال، أو قيل له.. لا يعرف أن خطبته وفرحه سيكون في السماء.. لا يعرف أنه سينكح الحور العين.. جميلة ستكون أيضا هناك، زوجة له.

" أنا بقى كل اللى بافكر فيه دلوقتى إنى أفطر، أنا جعان وعطشان قوى"

هكذا شعر،، عطش شديد في تلك المنطقة الحدودية النائية.. حياة صعبة، والتعود عليها أصعب.

هو لا يعرف أنه سيشرب من حوض النبى شربة ماء لا يظمأ بعدها أبدا.. معزوم على وليمة في السماء تضم شتى أنواع النعيم، لذة للآكلين. بالأمس كان سحوره الأخير في الدنيا؛ لن يأكل طعامه الذي أعده منذ دقائق فيها.

" أنا عايز ألحق أصلى العصر، أصل المغرب هيأذن خلاص "

هو لا يعرف أن تلك هى آخر مناجاة دنيوية بينه وبين رب العباد.. لا يعرف أنه الآن سيصلي صلاة مودع.. سيبعث يوم القيامة، وهو ساجد هم، أصحاب الأنفاس الأخيرة..

# ماء مالح

عند هذا المكان الذي أعشقه، ركنت سيارتي. نزلت مرتجلًا أمتارًا معدودة، حتى وصلت إلى تلك الصخرة. أديت التحية العسكرية بانضباط وثبات، عادة اعتدتها منذ أن رحلت معلمتي الأولى، تلك التي علمتني كيف يكون الحُب، وكيف أعطي دون أن أنتظر المقابل، وأن أكتفي بعطاء يجعلني متكبرًا ومُترفعًا عن ذاك المقابل.

رحلت منذ خمس سنوات، ومازلت آتي شهريًا إلى هنا في مثل هذا اليوم، أقف في انضباط عسكري رفيع، لأؤديَ تحيتي الهادئة التي لا تعني إلا احترامًا وتقديرًا، لرُفاتِ علمتني كيف أعشق، وأن يكون عشقي مدرسةً تُعلم معنى الحياة.

أقف أمامها، أقرأ الفاتحة، أترحم وأبكي وربما أنتحب، لكن قلبي تملؤه البهجة، مادامت ذكراها تسكنه وتذكره بما مضى. غير أن قبرها ليس هو تلك الصخرة، لكنه آخَر موضع وطأته قدماها.

عندما قابلتها آخر مرة في إحدى ليالي صيف الإسكندرية، عند هذا الشط، في ذاك الموضع الذي

يسمونه (الطابية). كانت ليلة حالمة، وكانت متوردة يانعة كزهرة في بستان، كستنائية الشعر ، جدائلها من حرير، تأبى أن يقطفها عابر سبيل أو يلمسها شارد. في قمة الجمال والصبا، تهمس في أذنيّ كأنها حفيف الشجر،

تتلمس خصلات شعري في نعومة، تناجيني كما يُناجي صاحب المزمار حيته. سكت لسانها فتكلم قلبها، وحكى بلسان عاشق متيم فقالت: إنى أحبك،، فقلت: بل أنا هذا الذي يحبك، وسيظل.

قالت: إنى أعشقك،، فقلت: إنه أنا الذي فيّ وجد وصبابة.

قالت: هل أكون زوجتك يوما ما؟ ، فقلت: أنت هي، لا ريب.

ثم تنهدت في ارتياح تنهيدةً جعلت أوصالي ترتعد، وأشلائي تتقد، ضممتها حتى داهمنا الفجر، فصرنا في قمة الخجل.

# تلك التي رحلت

صاحت الديكة، فأذن للفجر، قامت فصلت فسجدت فأطالت السجود.

راحة غريبة تملأ كيانها، ورضا تام ويقين لا يتأتى إلا لمن له كرامة. ذلك الحلم الذي حل ضيفا عليها طيلة الليلة، فكان رقيقا عذبا حلو المذاق، وتلك الآية التي كانت ترتعد فرائصها عند سماعها ولو صدفة في مكان ما: "كل نفس ذائقة الموت"، لماذا تستطعم حلاوتها الآن، تشعر أنها تنزل بردا وسلاما على قلبها.

أيام مضت، كانت قد تغيرت تصرفاتها تماما، نظرت إلى الدنيا بمنظار أرحب، وعين بكاءة ونفس تواقة إلى الطاعة، فزهدت في كل شئ وأعرضت إلا عن استجداء العفو والمنة. لم تعد من أولئك الساعين إلى الدنيا، المتكالبين على زخرفها.. تغيرت معاملتها مع الأقارب والأحباب والمحيطين، تلك التي كانت منذ أيام فقط تسقط جحيمها وجم غضبها على كل معارض أو لوام أو مشفق أو ناصح سليم النية. عرفت ماهية الدنيا، فقضت على رعونتها، وسلكت ديدن الدين، فجمدت شوكتها.

ذاك الصباح خرجت، لم تنس أن تلقي نظرة مشتاقة على فراشها ودميتها التي سامرتها الليالى، وصورة أبيها المتوفي.. قبلت يد أمها في حنو، ومسحت على رأس أخيها اليتيم. أغلقت باب الشقة، فشعرت أنها تغلق صفحة حياتها مع من تحب، غربة قصيرة ستغمرها في غياب الأحباب. ذهبت إلى الجامعة، مازالت الدموع تتحجر في مقلتيها، وابتسامة عذبة لم تعرفها من قبل..

# المسحول

وضع كلتا يديه أمام صدره، وضم فخذيه مطرق الرأس، تنحدر من عينيه دموعا تحمل أحجارا من الأسى، تتساقط في ذل على أرض شهدت مرارة السحل. لن تنطق بما رأته من خزي وقنوط.

عندما يفقد أحدهم إنسانيته، ليتحول إلى حيوان فظ، هاجر من غابة استوائية وعرة، من عصور كانت ترفع شعارا واحدا ليس أكثر، أن لا بقاء إلا لمن يحمل في إحدى يديه سوطا، وفي قدميه حذاء معدنيا لا يقل قسوة عن مرتديه.. المهانة بعينها أن ترى هؤلاء يتناوبون في وحشية على جسد سقط فريسة، فأصبح وجبة سائغة في أفواههم، تلكم بطونهم التي تعودت على الصيد الرخيص.

أن تعرِّي أحدهم وتجرده من عنوان عفته، وتسحله على مرأى من الجميع، وكأنك تبعث رسالة عينية، أنني الأقوى والويل كل الويل لمن رفض تقديم فروض الولاء والطاعة.. هكذا تسلبهم الكرامة، ترقص على نغمات صياحهم، تتلذذ بمجون آهاتهم، فتفرط في السحل، فتأتي النهاية محملة برنين الصمت الذي جاء رحمة.

# الكريز والكاكا.. فاكهة واحدة

قالوا قديما، وحديثا، وفى كل وقت.. عدوك ابن كارك.

الأول: معدم بكل ما تحمله الكلمة من معنى، رث الثياب، معوج الهيئة، يقف بجانب الطريق، حيث الزاوية الفقيرة التي تضم في طياتها المعدمين من أمثاله، يفرش بضاعته البخسة، يتفحص المارة بنظرات يملؤها الحقد، واصفة القهر والذل وقلة الحيلة والهوان، يبيع فاكهة واحدة هى الكاكا.

الثاني: في أبهى الصور هو، نظيف الثياب، مهندم إلى أقصى درجة، تنطبق عليه علامات التاجر الكبير، له محل أنيق في أكثر الأماكن حيوية في المنطقة، زبائنه من فئة بعينها، يبيع فاكهة واحدة هي الكريز.

الأول ينظر للثاني بنظرات حقودة غلوله، والثاني ينظر للأول بنظرات متعالية ساخرة.

الاثنان يضمران لبعضهما كل الكره والعداوة.

بائع الكاكا يشعر أنه هو المميز، كون الكاكا فاكهة حيوية وضرورية ولذيذة أيضا.

أما بائع الكريز فيرى أنه بائع الطبقة الأرستقراطية، سمة ولاد الذوات، غير أن الكريز هو الأجل والأنضر.

قامت الثورة، فجمعت بينهما، ومشيا كتفا بكتف في تظاهراتها، يقولان بأعلى صوتهما:

الشعب يريد..

وداخلهما يردد: الكريز والكاكا.. فاكهة واحدة!!

# فض اعتصام

الحشود غفيرة، فلا موطئ لقدم.. برودة ساعات الفجر الأولى تمحوها الأنفاس المتقاربة.. الوجوه ذاهلة، والأعناق مشرئبة، واللون الأسود تخامره عباءة الليل الكالحة. لماذا سهروا الليالي هنا وألحقوا الأيام بالأيام؟ يقولون إنهم يريدون عودة الملك، ذاك الذي طغت جماعته في البلاد وهددت العباد، يزعمون أنه من الصالحين الأخيار، هكذا تقول ألسنتهم وتعي قلوبهم وتصر عقولهم!

جاء في جمع من معاونيه يريد إنجاز مهمته، فيفرق ذاك الجمع الكبير، طلب منهم الانصراف في تأدب فأبوا وأصروا واستكبروا استكبارا، رفع يده إلى معاونيه بإشارة البدء، فحبست الأنفاس في الصدور، وزامت الأفواه وشدت البطون، ثم نادى منادى الحرب.

# اسمى رابعة

بدت مستكينة في حلتها المهترئة، شعرها مبعثر، خصلاته متطايرة، وجهها مغبر، وجسدها واهن بعد شموخ، ذابل بعد صحة، جريح بعد عافية، بدت مشوشة، تتلفت يمنة ويسارا، تبحث عن أبنائها الذين سقطوا، ومجدها الذي ذل، وهيبتها التي ضاعت، وحقوقها التي توارت، تبكي في حرقة، تملؤها اللوعة، وتعشش في سماء قلبها الفرقة، متخبطة، كأن بها مس من جنون يشوبه نزق. سألتها، ما اسمك؟ فقالت في شحوب: رابعة..

# آخر عناقيد التوت

كان الأخير متدليا من عنقها، فازداد لذة على لذة، يتأرجح في نشوة مع كل ميلة من خصرها، فتخرج الرقصة في غنج ونشوة، تحسده باقي العناقيد على رفعته وعلو قدره المشهود. طالما دعا الله أن يحوط تلك الرقبة النضرة، ها قد ترفع عن جنس الفاكهة ليدخل الجنة، فما أحلاك من عنقود، وما أزينها من رقبة!

تمت

في ١-٤-٢٠١٣

# الفهرس


إهـــداء ..... 5

تقديم ..... 6

أتوسل إليك ..... 8

دمعة حائرة ..... 10

الكائن الليلي ..... 16

أم صابـــــر ..... 18

الأستـــــاذ ..... 22

انتمـــاء ..... 25

رجل الإسعاف ..... 27

جريئـــــة ..... 31

صرخة ميدان ..... 34
في العيادة ..... 37
عم علي ..... 39
حفاة عراة ..... 43
فى الغُرفة 707 ..... 48
قوم جبارون ..... 53
ليلة شتوية حارة جدًا ..... 56
عين واحدة.. تكفى ..... 63
شهادة ميلاد ..... 67
رائحة الشوام ..... 71
جميلة ..... 74
ذاك الصوت ..... 79
النسيان.. نعمة ..... 82
الميت بتاعنا ..... 85
العذاب الممتع ..... 87
بلطجة آخر حاجة ..... 92
شهد ..... 95

متسللة ..... 99
فقط لأنك أبي ..... 103
مريض الرابعة فجرا ..... 106
قسمة ماهاش نصيب ..... 109
عتاب أسري ..... 112
صلاة فـــي السماء ..... 117
قصة جنسية ..... 119
فرح بطعم الحزن ..... 121
فى انتظار عزرائيل ..... 123
مـــــالك ..... 126
الأنفاس الأخيرة ..... 128
تلك التي رحلت ..... 132
المسحول ..... 133
الكريز والكاكا.. فاكهة واحدة ..... 134
فض اعتصام ..... 135
اسمى رابعة ..... 136
آخر عناقيد التوت ..... 137

صدر للكاتب:

سرداب الجنة، رواية، ٢٠١٢

للتواصل مع الكاتب

www.facebook.com /esmael hamed

www.twitter.com /esmael hamed

gmail.com@esmaelhamed٢٥

# رائحة الشوام

تصميم الغلاف كريم آدم

جاءت تجري نحوي بخطوات بريئة, يملؤها الحماس والعناد والرغبة فى الحياة, والتوق إلى الانطلاق.. ترسم ابتسامة صافية على ثغرها الصغير، وكأن فرحة الدنيا قد كستها، فغمرتها وفاضت منها لتغرق المحيطين. عيناها تتلألآن كأنهما بلورتان عسليتان فواحتان بأسرار الجمال وبراعة الخالق وروعة الصانع.اقتربت نحوي، ترتدي لباس النوم الحريري, تفتح ذراعيها فى براءة, تنساب شعيرات رأسها فى استسلام ووداعة.. تقترب مني أكثر, تحتضنني بقوة، في رغبة حقيقية ألا تفلت من بين ذراعي, كأنها تقول لي: كم أحبك أبي!

## د. إسماعيل حامد

طبيب بشري, وكاتب قصصي وروائي, من مواليد المنصورة ١٩٨٦, شارك فى العديد من الكتابات الجماعية الورقية والإلكترونية. شارك فى العديد من المسابقات الأدبية وحصد الكثير من الجوائز. نشرت أعماله فى كثير من المجلات الفنية والأدبية. له رواية مطبوعة بعنوان (سرداب الجنة) ٢٠١٢, وهذه المجموعة القصصية هى باكورة إنتاجه فى مجال القصة.

إبداع